ظمأ وعشق لله

ظمأ وعشق لله

مجاهد منعثر منشد الخفاجي

الطبعة الأولى - العراق - بغداد 2022

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الأسترجاع او نقله على أي نحو أو بأي طريقة كانت (الكترونية) او (ميكانيكية) أو بالتصوير او بالتسجيل أو بخلاف ذلك الا بموافقة خطية من المؤلف أو الناشر.

All Rights Reserved , Not Part of this Publication may be Reproduced Sorted in Retrival System , or Transmitted in any former by any means , Electronics , Mechanical , Photocopying , and Recordeing of otherwise , without Prior Permission in Writing of the Publisher

أدب (مجموعة قصصية)

ظمأ وعشق لله

تأليف

الباحث الأديب
مجاهد منعثر منشد الخفاجي

الأهداء

إلى من يرجو رحمة ربه, لروح من سطر الحروف بأنامله المتواضعة إلى يوم الممات,في القبر عند السؤال, يوم المعاد والحشر والنشر , سائلا مولاه أن يظله بحاجز الشهداء والحجور الطيبة عن العار والنار في الدارين , ويلحق روحه المذنبة بالأرواح الطاهرة إلى أبد الأبدين ,إنه سميع مجيب.

على روح المرحوم / ـه ( )

عدد النسخ ( )

توقيع

غرس طاهر مثمر من شجرة مباركة , غرسه الله في صلب بضعة النبي ونفسه, رواه الرسول من نبع الوحي الطاهر, فأورقت الأغصان , وأينعت الثمار من قيما نبيلة ومبادئ سامية؛

أرادت اجتثاثها شوكة شجرة خبيثة,نجسة , مزقتها أشلاء, سالت دماؤها أنهارا , فارتوى منها كل ظامىء.

المؤلف

المقدمة

منذ أمد بعيد, وددت تقديم ماهو جديد عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام , فأهتديت إلى أن تكون ملحمة عاشوراء , على هيئة مجموعة قصصية تصور منبع الرجس لقتلة الشهيد السبط أبي عبد الله عليه السلام , اخترنا الرؤوس الرئيسة, في الفصل الأول بعنوان(حجور خبيثة) استمدت قصصه مما أرخه مؤرخو المذاهب الإسلامية, بأسلوب أدبي.

ويضم الفصل الثاني مجموعة (حجور طيبة) عن أبطال الثورة , ممن تعاملوا مع الحدث, ولادات , وفيات, زواج , دلالة على ولادتهم الطاهرة , وقربهم من رسول الله (ص) , علمه بما سيجري بكربلاء , إلا أن تسلسل القصص حسب الزمن التاريخي , كصورة لذهن القارئ عن التساؤلات التي ستحضره في الفصول القادمة .

أما الفصل الثالث (صراع) فيبدأ بنهاية الطاغية, لتنطلق بذرة فتنته في أخذ البيعة لابنه, وما أعقب ذلك من أحداث , بدأت بشهادة سفير الحسين وميثم التمار في الكوفة .

ويتحدث الفصل الرابع عن رحلة الإمام الحسين وآله وأصحابه من المدينة إلى الكوفة , مع ومضات من المعاناة خلال سرد بعض القصص القصيرة.

تأتي مصارع الأبطال في الفصل الخامس ضمن المأساة الخالدة, ثم ننتقل إلى الفصل السادس الذي تشتمل أحداثه على قصص سبي آل الحسين من صَباح الحادي عشرَ من مُحرَّم , من كربلاء إلى الكوفة حتى شهادة عبدِ الله بنِ عَفيفٍ الأَزدي.

أما الفصل السابع فهو بعنوان (السبايا إلى دمشق, فالمدينة) .

وأخيرا حاولنا قدر الإمكان تقديم ما هو جديد بأسلوب السرد القصصي القصير , فنرجو بذلك شفاعة ريحانة رسول الله (ص) سيدي وأمامي أبي عبد الله الحسين عليه السلام على روحه الطاهرة السلام من الآن إلى قيام يوم الدين والحمد لله رب العالمين

بقلم المؤلف

الفصل الأول
(حجور خبيثة)

*(لقيط أسود)

رائعة الجمال, ساطعة البياض فتنة معاوية , تمتمت مع نفسها : بعلي قتله أخوه الشغوف بهواي , انتفاخ بطني بلغ مداه, سأتزوج الملك . تزوجها , بعد شهر من الاقتران استولى على لبه الشك كدوامة وسط رأسه الكبير يسأل نفسه : أيه يا ميسون الفاتنة , مالي والباغية , الفاتنات يملأن الشام .تراخى وعادت حمرة وجهه إلى البياض , وكلما ارتفعت بطنها دق جرس هواجس أفكاره مرددة : بأية ظلمة تلحفتي, أمع عبد أبيك أم من أخ زوجك الذي قتل بعلك ؟

أتريدين جنينك كمعاوية لا يعلم أباه أهو عمارة بن الوليد أم أبو سفيان بلونه الدميم ؟

نهض من عرشه ومضى مسرعا للقصر , وصل غرفتها وتوقف يلتقط أنفاسه اللاهثة سمع بأذنيه الكبيرتين شديدة السحر والجاذبية تغرد بصوت أنوثتها الطاغية :

لَبَيْـــتٌ تَخْفـــقُ الأَرْيَاحُ فِيـــه ... أَحَـــبُّ إِلَيَّ مـــنْ قَصْـــر مَنيـــف
وأَصْـــوَاتُ الـــرِيَاحِ بكُـــلِ فَـــجٍّ ... أَحَـــبُّ إِلَيَّ مـــن نَقْـــر الـــدُّفُوف
وكَلْـــب ينْـــبح الطُـــرَّاقَ عـــنِي ... أَحَـــبُّ إِلَيَّ مـــن قـــطّ أُلُـــوف

وبكـــر يتبـــع الأظعـــان صـــعب ... أحـــب إلـــى مـــن بغـــل وفـــوف
وِلُـــبْسِ عَبَـــاءَة وتَقَـــرَّ عَيْـــنى ... أَحَـــبُّ إِلَيَّ مـــنْ لُـــبس الشَّـــفُوف
وأَكْـــلِ كُسَـــيْرَة في قَعْـــر بيْـــتِي ... أَحَـــبُّ إِلَيَّ مـــنِ أَكْـــل الرَّغيـــف
خُشُـــونَةُ عيشَـــتِي في الْبَـــدْو أَشْـــهَى ... إِلَى نَفْسَـــى مـــن الْعَـــيْش الطُّريـــف
فمـــا أبغـــي ســـوى وطـــن بـــديلا ... وحســـبي ذاك مـــن وطـــن شـــريف

اشتاط غضب معاوية فصرخ في وجهها : تشبهينني بالعِلج أيتها البدوية؟ الحَقِي بأهلكِ لا رَدَّكِ الله.

ارتعت مذعورة من صراخه , وخرجت قلبها يخفق من السعادة كطير يرتفع في الهواء وينزل على أرض بادية بني كلب .

مضت شهور فأنجبت طفلا كثيف الشعر لونه كسواد شعره بوجهه حبات كالمصاب بمرض الجدري .

*(حقدُ أَبٍ)

كلما سمع المؤذن ينادي بصوت الأذان :أشهد أَنَّ محمد رسول الله , ارتعش , كان نائما أثناء صلاة الفجر فرأى في منامه أَباه يركب على حمار وهو يقوده وولده يسوقه , والناس يهمسون في بينهم بصوت مسموع : قال النبي : لعن الله القائد والراكب والسائق .

اخترق مسامعه التشهد في أذان الفجر , ضجر , تقلب على وسادته , صم أذنيه بكلتا كفيه , عاد ذهنه للحقيقة عند تذكير الناس

بقول الرسول عنه : اذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه .

نهض من فراشه غاضبا, صرخ , أمر الخادم , بلغ القادة في الديوان : سَبٌّ عليٍّ على 70 أَلف منبر!

****

* (أُمنية أُمٍّ)

ضمَّت صدرها الى صدره , فتحت فمها , تتخيل , تتمناه , تستنزف له , حركت لسانها تناغيه :

إن يزيد خير شبان العرب أحلمهم عند الرضا وفي الغضب
يبدر بالبذل وإن سيل وهب تفديه نفسي ثم أُمي ثم أَب
وأسرتي كلهم من العطب

بأجفان مفتوحه تنتظره يكبر , رجلته طفلا , غرست حب الشعر في قلبه , شب أجعد الشعر بين قوم أخواله على اللهو والخمر واللعب مع الكلاب والقرود .

****

* (صفيق)

سأله معلمه فأخطأ , زجره بصوت عال : أخطأت ياغلام!.

ـ إجابه : الجواد يعثر .

أردف المعلم .. أي والله , ويضرب فيستقيم .

كالحرباء تلوَّن وسحب أنفاسه فتطاول : أي والله فيضربُ أَنف سائله .

****

*(ابن الطلقاء)

نبذ سُنَّةَ النَّبيِّ وراء ظهره كشمل مَنْ ضَيَّع الفرائض بالكبائر , يتذكر ولعَ أَبيه بالخمر والزِّنا , استدعاهُ يزيد ليحيي معه مجالسَ السَّمَرِ في قصر الخضراء بالشام , وسط نقر الدفوف وتمايل الرقصات يمسك أناء النبيذ ويخاطب اللقيط : أَنشدني من كلامك .

ـ أَجابه وقردُهُ (أبا قيس) على فَخْذِه الأَيمن يسقيه الخمر :

أقــول لصــحبٍ ضــمّت الخمــر ... وداعي صبابات الهوى يترنّمَ

خــذوا بنصــيبٍ مــن نعــيم ولــذّة ... فكل وإن طال المدى يتصرم

تبسم معاوية لفصاحة ابنِهِ , فأوصاهُ : أبني لا تدعْ أحداً يراك وأنت تعصي الله .أَردف السَّمينُ الطويلُ الغليظُ الأَصابع : سمعاً وطاعةً , إلَّا أَنَّني أَهديك :

وَشَمسَةٍ كَم دُحتُها قَعدُ دَنَّها ... وَمَطلَعُها الساقي وَمَغرُبُها فَمي

نُشيرُ إِلَيها بِالأَكُفِّ كَأَنَّما ... نُشيرُ إِلى البَيتِ العَتيقِ المُحَرَّمِ

إِذا بُزِلَت مِن دَنِّها في إِنائِها ... حَكَت نَشأً مِن الحَطيمِ وَزَمزَمِ

فَإِن حُرِّمَت يوماً عَلى دينِ أَحمَد ... فَخُذها عَلى دينِ المَسيحِ بنِ مَريَمِ

قَهقَهَ معاويةُ ونبضات قلبه تتغنى باللقيط , حدَّثه برأفه وخوفٍ على مستقبله في الحكم ,حذَّره من العلن فأنشده :

انصَبْ نَهَارًا في طلَابِ العُلَا ... وَاصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الحَبِيب

فَبَاشِرِ اللَّيلَ بِمَا تَشْتَهِي ... فَإِنَّمَا اللَّيلُ نَهَارُ الْأَرِيب

كَمْ فَاسِقٍ تَحْسَبُهُ نَاسِكًا ... قَدْ بَاشَرَ اللَّيلَ بِأَمْرٍ عَجِيب

غَطَّى عَلَيهِ اللَّيلُ أَسْتَارُهُ ... فَبَاتَ فِي أَمْنٍ وعَيشٍ خَصِيب

ولَذَّةُ الأَحمَقِ مكشُوفَةٌ ... يسعى بها كلُّ عدوٍ مريب

كلما توقَّد احساسه بهواجس حَمْلِ ميسون بيزيد , أَقنع لبَّه المخمور بسؤالٍ :

أَيهما أَفضل أَبقى دونَ وريثٍ أَمْ هناك مَنْ يرثني ويقضي على آلِ الرسول ؟

ازداد حبّاً وشغفاً بيزيد , يغرس في عقله , غضَّ نظره عن موبقاته ومخالفته للشريعة , همسَ في أذنه بصوت خفيف : أَتعلم يا بني كيف تكسبُ أَولاد البغايا ؟

ـ كلا .

أَردف ..

زياد ابن سميَّة لا يعرف أَباه , تقول كأبيك : جدك أبو سفيان قضى ليالي مع صاحبة الراية الحمراء ,فأنجبت زياد .

ابتهج اللقيطُ بضلال أَبيه ليرن في مسمعه سؤالٌ آخر : أَتعرفُ كيف تقلع شوكه في طريقك ؟

- أقتله .

- تقتله بيدك ؟

- نعم .

كلا , بيد غيرك , تسمّهُ وتنسبُ موتَهُ للهِ , فتقولُ : للهِ جنودٌ من عَسَل .

****

*(زياد بن أَبيه)

الثالث والثلاثون من عام الهجرة , استبشر كثُّ اللحية, قبضَ بكفِّه الأَيمن نهاية الذقن , بؤبؤ عينيه السوداوين لا يفارقان رؤية ملامح الوليد .

اندهَشَ , يحدِّثُ نفسه: أَيشبهُ أُمَّهُ مرجانه ؟

وهَمْهَمَ: لاتَعجلْ ستظهرُ ملامِحُهُ بعدَ شهور .

تذكر خطبتُه وهو غلامٌ بمحضر أَبي سفيان وعلي وعَمْرُو بن العاص أَيام خلافة عُمر بن الخطاب , ابتهجَ مُحياهُ وسرَّ قلبه بقول ابن العاص : ما أَعظم هذا الغلام لو كان أَبوه من قريش لساق العربَ بعصاه !

رنَّ مسامعه همسَ أَبي سفيان لعليّ وابن العاص : والله إنِّي لأَعرف أَباه ومَنْ وضعَهُ في رَحِمِ أُمِّه.

تخللت الكآبة أَعماقه , فتح صيوان أُذنيه , فسمع سؤالَ أَبي السِّبطين : ومن هو يا أَبا سفيان ؟

قالَ : أَنا .

نصحَ أَبو الحَسَنِ : يا أَبا سفيان أسكتْ فلو سمعها عُمَر لكان سريعًا إليك.

ردد أَبو سفيان منشدا :

أمـا واللّه لـولا خـوْفُ بِشـخص ... يـراني يا علـيُّ مـنِ الأعـادي

لبـيَّن أَمـره صـخرِ بـنِ حـرب ... ولم يكـنِ المُجمجـم عـن زياد

ولكـنِ أَخـافِ صـروفَ كـفٍّ ... لهـا نقَـم ونفْـيٍ عـن بـلادى

فقـد طالـت محـاولتي ثقيفـا ... وتركـي فـيهم ثَمَـر الفـؤاد

فوَّقتُهُ زوجتُهُ من صمته , ما أسمُ ابنك ؟

مسحَ العَرَقَ عن جَبينه , هَدَأَ رَوعُهُ , أَطرقَ مسامعه بثقةٍ : اسمُهُ عبيد الله .

****

*(أبقع ببوز كلب)

يهودية ترعى ماعزها تبحث عن كثرة الحشائش , اجتازت منتصف الصحراء , أرهقها الظمأ , باتت ترى بعينيها الذابلات من العطش نقاط بيضاء صغيرة , استجمعت قواها فرأت راعياً يتبَوَّلُ واقفاً , سارت تتخطى الأَرض بصعوبة , خاطبته بصوتها الناعم : لدني .

هتف شيطانه مرحبا برغبته في جفاف الصحراء ليسمعها : مكنيني من نفسك وأشربي ما تشائين .

ـ دعني أشرب .

ضمها لحضنه ,أسقاها , تشابكا , وطأها .

عادت بمعزاتها لقبيلتها , تستعيد ذاكرتها بلحظة العطش , مضى يومين ورغبتها تريد لقاء البَوَّال .

تجملت وأخرجت ماعزها وكاد الشوق يعيها كعاشقة لاترى عيوب حبيبها .

تكرر اللقاء , انتفخت بطنها كالبالون , التقت بغريمها , حدَّث نفسه : أيتها الأَمَةُ العاهرةُ لابد من الفراق , رفع صوته بحنان الخوف عليها : عليك أَن تلدي في بيت سيِّدك .

أَجابته : لا أطيق فراقَكَ .

ـ أَخافُ عليك من القتل .

أردفتْ نلتقي فيما بعد .

حان موعد الولادة , جاءت القابلة , وضعت من رحمها أَبقعَ, وجهُهُ كبوزِ الكَلبِ .

سألتها النُّسوةُ , ما أسمه ؟

رَدَّتٍ : شِمْر .

****

*(مولود على عناق نجد)

تُحدَّث نفسها ..إيهٍ .. أربعُ زوجاتٍ وستٌ من الإماء, أنا بينهنَّ, يادحدح ياغليظ ؟

يا شَثِنَ الأَصابع مالي غير غريمي !

أَينك ياعروة , لتتعانق قبيلة مسيلمة وكندة على هواء نجد!

على مرئ الناس يلتقيان بالخلوة , سارع اثنان لرؤية العشاق , قال لصاحبه من هذا الذي يتردد على ماوية بنت قيس؟

ـ انتظر دعني أُحَدِّقُ فيه ... آه .. إنَّه عـروة بن مهـان بن حصن من بني حنيفـة .

أردفَ .. أَنخبر ذا الهامة المشعر ؟

ـ يعلم ولا يحرك ساكنا , أنسيت جدته (ام جميل) من ذوات الاعلام .

توقفا هنئية ...

سمعا حديث العشاق أثناء العناق .. عروة : حملتي مني يا ماوية .

- أجمل وليد من أحلى عشيق .

- ثكلتكِ أمك أَيتها الحسناء ما سيسميه بعلك ؟

- عمر .

- وأنتِ ما تريدين أسمه

- عروة

قهقها , ثمَّ نهضا وتفرَّقا

*(مغنية حيّ قبيلة عُصية النجدية)

سأَلها المُغيرةُ بنُ مَعاذ : يا آمنة ابنك شُرَيح لا يشبهني ؟

ـ تبسَّمتْ ... لا أَعلم ربَّما يشبهُ أَبا سفيان أَو الحكم بن العاص.

أَردفَ ..ومَنْ في بطنك ؟

ـ أَجابت قائلة: جَامَعَنِي خمسةُ رجالٍ, أَوَّلهم وآخرهم أَبو سفيان .

-يا عاهرة ... لُعِنَ أَبوك عَلقَمَةُ بن صَفوان , لا تنسبيه لأَبي سفيان البخيل , افعلي كالنابغة الزرقاء نسبتْ عَمْرو للأَبتر العاص .

فكَّرتْ هُنيهَةً, أَسلسَ النطق بها: معه لذَّةٌ لايُسبرُ غَورُها , لا يُمَلُّ , متعلِّقٌ بي , كثيرُ المال .

-من؟

-الحكم بن العاص .

قهقه بصوتٍ عالٍ : سَمِّيه مروان .

غنَّت للحكم , كان ثَمِلًا , أَجَّجَتْ سعيره , نامت بظلِّه , أَنجبتْ كبيرَ رأسٍ, أَحمرَ وجهٍ في العام الثاني من الهجرة , ناغته جدَّتُهُ سَلمى الزرقاء .

حملوه للرسول , صرخ في وجوههم : ابعدوه عنِّي هذا الوزغ ابن الوزغ ,الملعون ابن الملعون.

*(الخمّارة البوّالة)

لا أَعلم ما دهاها , تَبولُ على عَقِبَيها , هكذا تشاهدها المارَّةُ منَ العرب , تتسكَّعُ أَينما وجدتْ الخمرَ , تهدرُ عفَّتها ولا تبالي , تتنقل بين أَحضان أَصحاب الخمَّارات من اليهود .

ليلًا ناداها سيِّدُها لفراشه , ارتمتْ بين ذراعيه , استيقظت على صياح الديك , نظرتْ بوجه تميم تحدِّثُ نفسها : لا أَعلم مَنْ في بطني ابنكَ أَو لغيرك .

تساقط من إدرارها على فخذيه , صحا , زجرها : أَيَّتها الإماء العاهرة , إلا يكفي ينتنك الخمر ؟

عانقته , لثمته , غازلته ورنت أذنيه بلسان أنوثتها : سيدي الحبيب اعذرني ابنك في بطني.

قال: افعلي ذلك .

تبسَّمَ, وكادتْ شَفتيه تلتهمها : إنَّهُ حُصَينُ بنُ تميم .

****

*(شك السكوني)

ضاجعَ عَروسَهُ الثَّيِّبَ , اندهشَ , سأَلها : أَينَ عُذرتُكِ ؟

ـ سلْ نفسَكَ , لقاؤنا قبلَ الزواج في صحراء نجد!

جنَّ ليلُ اليوم الثاني , خرج يتلصصُ, سرق صدقة , وعادَ خائفًا لدارهِ , رأى رجلًا يخرج من منزله كأَنَّه شبحٌ , توقَّفَ يَدلُكُ عَينيه بكفَّيه , مضى مسرعًا, أَطرقَ الباب بقوةٍ , صارخًا : افتحي الباب .

هَلَّلَتْ به مُرَحّبةً بشعَرها المُبلل , سألها بغضبٍ : مَنْ كان معك , وأَينَ كنتِ؟

ـ ترنَّحتْ بخطواتها الساحرة, وجسدها يرتعشُ ,أَغوته بحسنها , طعنته بنظرةٍ وصوتٍ يَتَغَانَجُ : وحدي ,أَستحمُّ لكَ.

اردفت .. هل يلاحقك أَحدٌ يانمير؟

هدأَ روعُهُ وهو يردد أَتخيل .. ربَّما أتخيل من الخوف .

مضت السنون , فأنجبت أَولادًا, كلَّما حدَّق بـأَشكالهم المختلفة يستولي على لُبِّهِ الشكُّ, ويحدِّثُ نفسه : أخرج بالشهور وأعودُ , فأرى بطنها منتفخة , سأتخذ القرار !

مسك كتفها وأبنها الحُصين في حجرها , خُذي أولادك وارحلي لأَهلك, أَنتِ طالقٌ .

الفصل الثاني
(حجور طيبة)

*(رؤيا)

مضت ليلتها باكية حتى الصباح, تحدث نفسها: كنت له أُمّاً بعد أمه, أراه كهذا!

سمع الجيران نحيبها وعويلها, اسرعوا إلى النبي: يارسول الله أم أيمن قضَّت الليل تبكي. دعاها إليه

نطق بصوته العذب الرخيم: يا أُمَّ أيمَنَ، لا أبكَى اللهُ عَينَيكِ! إنَّ جيرانَكِ أتَوني وأخبَروني، فَلا أبكَى اللهُ عَينَيكِ! ما الذي أبكاك؟

ـ سيلٌ من الدمع كالنهر جارٍ على خديها, ردت بصوت خافت: رأيت رؤيا عظيمة شديدة أبكتني ليلي أجمع.

أردف قائلا: فقصّيها على رسول الله, فإنّ الله ورسوله أعلم.

تلعثمت, ثمَّ فقالت: تعظم عليَّ أن أتكلم بها،

كرر قوله: إنّ الرؤيا ليست على ما تُرى فقصّيها على رسول الله.

ـ بكت بحرقة ولوعة, رأيت في ليلتي هذه كأنّ بعض أعضائك مُلقىً في بيتي!

سالت الدموع من عينيه، هدأ روعها قائلا : نامت عينكِ يا أُمّ أيمن، تلد فاطمة سبط الثاني فتربّينه وتُلبنيه فيكون بعض أعضائي في بيتك.

*(شمس في عتمة الظلام)

حملته بضعة النبيِّ ستة أشهر, تنتظر, تسلل ومضه إلى مدينة جده, كلما عاد شريط الذكريات, كلَّمتْ نفسها: أمة أَبي ستقطع جسده أشلاء, أمام عينيها ذبحوه, فاض نهران من الدمع, أأخبرها الوحي؟

هل كغيمة ممطرة في صحراء لا ترى هطول أمطار, الثالث من شعبان, في العام الرابع للهجرة كان رسول الله يصلي صلاة الظهر, نزل الوحي بحشد من الملائكة بخبر عودة جعفر من أرض الحبشة. ملأت السعادة قلبه, كبَّر حبيب الله

جاءت بشرى الوحي الثانية, شع نور سبطه الثاني كالقمر في الليلة الظلماء, كبَّر المصطفى, جرت دموع عينيه ينبوعاً دافقاً, مضى لرؤيته . أهلوا بالنبي مرحبين, رأى سبطه يناغي أم أبيها, نظر بوجهه الباسم إلى علي سأله: أي شيء سميت ابني؟ ـ أجابه: ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله . لزم الصمت, نزل جبرائيل حاملا اسمه، التفت الرسول: سمِّهِ حسينا. أخذ الوليد وضمَّه لصدره, لثمه, سأل بضعته: ماذا صنعتِ؟

ـ ما أرضعته.

وكأن النبي يراه, تحرقه حرارة الشمس ورمضاء الثرى في كربلاء؟

فتح فمه ووضع لسانه فيه, مصه ككبد تلظى من الظمأ, وامتلأت أحشاؤه وروحه من نور النبوة, همس الرسول في أذنيه: إيها حسين! إيها حسين ! أبى الله إلَّا ما يريد، هي فيك وفي ولدك. وضعه بيد فاطمة, خرج إلى المسجد يصلي صلاة المغرب, نداء السماء يخاطبه, خف مسرعا برفقة الملائكة لبيت بضعته وبعلها, نظر إليها نظرة تجيش بالحنان قائلا: ناوليني ابني الحسين . وضعته بين كفي أبيها مقمطا, يناغي جده, اتجه به نحو السماء, دعا: اللهم إنِّي أَسألك بحقِّ ابني الحسين أَن تغفر لصلصائيل خطيئته وتجبر كسر جناحه، وتردّه إلى مقامه مع الملائكة المقربين, عاد لمقامه مع حشد الملائكة نحو السماء.....

****

*(قارورة)

ليلة العاشر من محرم دخل غرفتها, أشعثا مغبراّ , استقبلته بعينيَّها الضاجتين بسعادة لقائه, استغربت حاله, برجاء عميق سألته: يا نبي اللّه, بأبي أنت وأمي, مالك؟

ـ دنا منها هامسا: أُسري بي في هذه الليلة إلى موضع من العراق يُقال له كربلاء، فأُريتُ فيه مصرع الحسين ابني.

أخرج من جيبه ترابا, وضعه وسط كفها الأيمن, تباطأت الخطا, وضعت التراب في قارورة و خبّأتها.

بادر زوجها يجيب قلبها المندهش: يا أم سلمة إذا تحوّلت هذه التربة دماً فاعلمي إن ابني قد قتل..

سالت الدموع على وجنتيها غدتا شاحبتين متغضنتين أشد مما كانت عليه.

ـ أردف ..هذه التربة هي وديعة عندك، ويح كرب وبلاء.

****

*(حجرُ النَّبي)

رهيفة الحسِّ تغمره بالحنان والعاطفة, يستنشق من مناهل الكوثر ثغرا تحلى بالعفاف, تحضنه بروح تشعل بين حناياه أشواق السماء, تداعبه بيديها, تقبله بفمها, تسبح في رحابه

يجلس عين شمسها مع ربيبه من صلبه- ابن عمه-, يخبره بما أخبره الوحي يخفق قلبها وهي ترنو كلما خيم الأسى العميق عليهما , نهض أبوها الحبيب إلى مهد الحسين تواق إلى غصن ظليل ونسمة عليلة, ينظر لبضعته وكأنه يحدثها: لو تعلمين يا حبيبتي أي فتى فتاك

. نحيلة, انطوت على نفسها توسع ضلوعها أمام قلبها الخافق: ألا ما أعظم حنينك إلى مهد ذكرياتي.

تستدير بوجهها المزهرعطشى إلى ملامح وجهه لمعرفة الخبر ضمه النبي لصدره مستعيداً خبر جبرائيل, فيرى دمه أغزر من دجلة,

يشمه كعطر رائحة الجنة كما يشعر عند تقبيل ريحانته الواله بحبها في فيشم فيها عبق الجنة . أجلسه بحجره يعلمه كيف يصنع من الغبار زهرة, كيف يستقطر من السراب قطرة ندى. ستة أعوام في حجرها وبعلها, لحجر النبي يشم نحره, يغذيه من طعامه وعلمه, يكرر: حسين مني وأنا من حسين , يجلسه على فخذه يقبله ويسمع من حوله: أنت السيد وابن السيد وأبو السادة ,أنت الإمام وابن الإمام وأبو الأئمة, أنت الحجة أبو الحجج تسعة من صلبك وتاسعهم قائمهم .

يلحق بجده المصطفى أينما ذهب, خرج من الدار وظله نور يشع بالوجوه, وصل المسجد رأى النبي وأباه ويجلس معهم أُبي بن كعب, سلم فرحب به الرسول قائلا : مرحبا بك يا أباعبد الله, يازين السماوات والأرضين .

نطق أُبَيٌّ: وكيف يكون يارسول الله زين السماوات والأرضين غيرك؟

رد .. يا أُبَيٌّ: والذي بعثني بالحق نبياً, إنَّ الحسين بن علي في السماء أكبر منه في الأرض ,فإنه مكتوب عن يمين عرش الله: مصباح هدى وسفينة نجاة , وإمام خير ويمن وعز وفخر ,وبحرعلم وذخر , وإن الله عز وجل ركب في صلبه نطفة طيبة مباركة زكية .

نادى المؤذن لصلاة الظهر, صلى , وعاد للدار برفقة الرسول وعلي , دخل على أمه ضمته الى صدرها, قبَّلته فشمت رائحة أبيها, سألته أين جلست؟

ـ أماه ـ في حجر جدي .

نظرت لأَبيها قائلة: تلتهب ـ في محجرك أثقل المعاني .

****

*(القمر الجديد)

بلهفة تنتظر اللحظة المرتقبة.

هزها فرحٌ لقد حان موعد الوليد الجديد ...

سكنت نفسها واطمأنت تلك التي تفرَّدت بحب علي توسعها تقبيلا وترى ـ في ملامحها التي تشبه الآباء والأجداد مشقة رحيل وأعباء طريق! كان ذلك ـ في شهر جمادى الأولى من عام الهجرة السادس .

بعد أيام ثلاثة ناغت البنت الأثيرة بصوتها حبيبها فمسّت قلبه .

سار صامتاً متمهلا يشم حول المهد عبير المنبت الطيب , احتضنها ,يرى تعب المسير على حدو الرواحل والشمس تغمزها بدوافق السعير.

عاد الرسول من السفر إلى المدينة , وكعادته يحط الرحال عند بضعته , خائر القوى حزين النفس , سارع لحفيدته ضمها إلى صدره قبَّلها بين جبينها وخديها ,قال الإمام :سمِّها يارسول الله.

التفت إليه ودموعه تتبلورعلى خديه قائلا: ما كنت لأسبق ربّي .

فانبرت فاطمة قائلة :ما يبكيك يا أَبتي لا أبكى الله لك عيناً؟

صمت قليلا ,هبط رسول السماء قائلا : سمِّ هذه المولودة (زينب) فقد اختار الله لها هذا الاسم وأخبره بمعاناتها من أهوال الخطوب والكوارث .

أغرق بالبكاء وأذاع نبوته: يا فاطمة اعلمي أنّ هذه البنت بعدي وبعدك سوف تنصبّ عليها المصائب والرزايا.

أجهش الجميع بالنحيب بلوعة حزن وسال دمع علي ..

****

*(مرارة كأس)

يتردد إلى حبيبة قلبه في بيت بضعته، يستقبلها في بيوت زوجاته، يداعبها ويلاعبها يغمرها بعطف سابغ، رباها وهذبها، يحدق بروحها الأطهر من ماء السماء وقلبها الأصفي من المرآة ينتظرها تتحدث عما رأت في منامها ترتجف: جداه رأيت البارحة أن ريحاً عاصفة قد انبعثت فاسودت الدنيا وما فيها وأظلمت السماء، وحركتني الرياح من جانب إلى جانب فرأيت شجرة عظيمة فتمسكت بها؛ لكي أسلم من شدة الريح العاصفة، وإذا بالرياح قد قلعت الشجرة من مكانها وألقتها على الأرض! ثم تمسكت بغصن قوي من أغصان تلك الشجرة فكسرتها الرياح، تعلقت بغصن آخر فكسرته

الريح العاصفة! فتمسكت بغصن آخر وغصن رابع ثم استيقظت من نومي ! أطرق وقلبه يخفق رحمة وحنانا، ضمها بشوق وضع خده على خدها، سالت دموعه على خديه رد بصوته الشجي: أما الشجرة فهو جدك، وأما الغصنان الكبيران فهما أمك وأباك، وأما الغصنان الآخران فأخواك الحسنان تسود الدنيا لفقدهما، وتلبسين لباس المصيبة والحداد في رزيتهم . سارت للزهراء والدمع يحرق مقلتيها ,شمت رائحة أبيها على وجنتيها، ألصقتها بحضنها قبلتها ألقت عليها دروس الوحي والنبوة، غرست في نفسها عنفوان نفس يتخطى الحواجز. مضت الأيام بسرعة البرق ولبى جدها نداء ربه .

اعتصر قلبها الحزن العميق، ذهول وجزع وهي ترى لأول مرة في طفولتها حبيبها يحمل على الآلة الحدباء حتى يوارى الثرى . تصغي للعويل والبكاء وهي ترى جسده الطاهر صامتاً ومن حوله ضجة صاخبة؛ فأي طائف من الحزن طاف بها ليسمعها لحن الموت؟

تشاهد جدها ساكنا في حجر أبيها يقبل جبينه وسيل الدمع يتساقط على خديه، يضعه على الوسادة برفق يغسله يطيبه بالمسك ويكفنه فيدخل الناس جماعات ليودعوا أعز راحل .

تحدق في القوم يحفرون حفرة عميقه في حجزة الزاوية

فيدلون الجسد فيها ويهيلون التراب ! لاذت بحضن أمها عانقتها وآهات النحيب تتعالى بغزارة دموع كالمطر، أضناهما

الحزن على النبي. ترنو إلي أبيها والحزن يعلوملامحه انقسمت الساحة بعد الرسول بخلاف لاينتهي تشعبت خطوطه، خمسة وسبعون يوما عاشت مأساة والدتها من جحود القوم وعنائها بطلب النصرة والتأييد لزوجها :صوت ونداءات أمها ترسخت في أعماقها مثقلة بالأحزان تبكي أباها وتندبه عند قبره:

ماذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

بدت أكثر نضوجا وأرهف حسا ,بادرت تسمع وصايا البتول تمرض أمها بعد إجهاضها جنينها في غمرة أحداث مؤلمة، ساد الانقباض بالدار، لحقت فاطمة بالرسول . ذاقت طفولتها المبكرة مرارة كأس الفقد.

****

*(زين أبيها)

ترى أباها كئيبا حزينا عن يمينه الحسن وعن شماله الحسين يلتفت إليهم فاضت عبراته.

ترقرقت عيناها الجميلتان المتأثرتان لرهافة قلبها, جلست بحجر أبيها, يمسح على رأسها ويقبلها بجبينها, تذكرت وصية أمها برعاية أخويها رغم صغر سنها, سألت: أتحبنا يا أبتاه؟!

ـ وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي.

أردفت .. يا أبتاه إن الحب لله تعالى، والشفقة لنا.
بدأ يلاطفها ، سألها: بنية قولي واحد.
ـ أجابته: واحد.
قولي اثنين
ـ سكتت!
استغرب, تكلمي يا قرة عيني .
ـ يا أبتاه ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد.
ضمها لصدره وقبلها بين عينيها.
ذكرته: أبتاه وصية أمي على فراش الموت, تزوج ابنة خالتي أمامه.
****

*(ولادة)
في العام الحادي والعشرين للهجرة كان يطوي الأرض لمعرفة كل ما يتعلق بالأنساب , تسللت عيناه على جارية , داعبت أهدابه أهدابها المغمغمة بهدوء وسكينة , اتسعت حدقاته بنظرات تعجّب , سأل مخيلته : أَليست هذه الجارية بنت ملوك النبط ؟
اقترب منها فاجأها : اسمك عليّة ؟
ـ التفتتْ يمينا ويسارا , تنفست ملء رئتيها , همست بأذنيه : أجل .
أذن هي أنتٍ , أنا عقيل بن أبي طالب , تقبلين الزواج منّي ؟

ـ أجابته بلهفه : نعم .

أشتراها , اصطحبها لبيته بالمدينة المنورة , حملت بعد شهور أنجبت (مسلمًا) .

أحتضنه عمُّه وصي الرسول , ضمه لصدره , عاد شريط ذكرياته بمحاورته مع حبيب الله قائلا له : يا رسول الله إنّك لتحبّ عقيلاً؟

أي والله إنّي لأحبّه حُبَّين ، حبّاً له وحبًّا لحبّ أبي طالب له ، وإن ولده مقتول في محبّة ولدك ، فتدمع عليه عيون المؤمنين ، وتصلّي عليه الملائكة المقرّبون إلى الله أشكو ما تلقى عترتي من بعدي.

تساقطتْ دموع الوصي .

****

* أُمُّ البنين في بيتَ أَبيها

تسمعُ عن بطولاتِ قائدِ الغُرِّ المُحَجَّلين , ذاتَ مَرَّةٍ سألتْ أَباها عند عودتهِ من المعركةِ :

خَبِّرنَا عن الحَربِ وكيفَ انتصَرَ المسلمونَ ؟

ضَمَّ ابنَتَهُ , وضَعَها في حِجرِهِ , أَجابَها : يابُنيَّةُ مالَكِ والحربُ وأخبارها؟ أَنتِ فتاة ؟

نَظرتْ مُتعجِّبةً لأَبيها وسألتهُ: أَلَمْ تقلْ لي مرَّةً إذا حاربَ المؤمنُ واستُشهِدَ دخلَ الجنَّةَ , وإنْ لم ينالَها نالَ النَّصرَ , أَنحزَنُ على الكافرِ مثلًا؟

تبسَّمَ حزامٌ وهزَّ رأسَهُ , تَنحنحَ وأَجابَ:

إنَّكِ على حقٍّ يا فاطمةَ الكلابيَّة , للهِ درُّكِ , أَخبارُ انتصارنا الأَهم .

سأَلتهُ زوجتُهُ ثُمَامَةُ : أَهي بطولاتُ يَعسوبِ الدِّينِ ابنِ عَمِّ النَّبيِّ ؟

-أَهُناكَ سواهُ يا ثُمَامَة ؟!

حرَّكتْ فاطمةُ لسانَهُ متشوقةً : لو لم يفعل شيئاً غيرَ قَتلِ مَرحبَ لكفاهُ .

حدَّثَها عن قلعِهِ بابَ الحِصنِ وأَراجيزِ عليٍّ بن أَبي طالب وهو يقاتلُ بطلَ الأَبطالِ .

أَنهى حديثَهُ , نهضتْ من حِجرِهِ , اتَّخَذَتْ زاويةَ الخيمةِ هدوءٌ وصمتٌ عميقٌ طَغَى على ملامِحِها ؟

نظرَ إليها حزامُ , فَهَمِسَ بأذنِ زوجتِهِ مُتعجباً: حماسَتَها تثيرُ عَجَبي , بنتٌ صغيرةٌ ما لها وقصصُ الأَبطال؟

- بنتٌ صالحةٌ , محبَّةٌ للنَّبي وآله , مولعةٌ بانتصاراتِ المسلمينَ .

- إنَّكِ على حقٍّ يا ثُمامَة , ستكونُ فتاةً لا تماثلها أخرى في بني كلاب , موفقةً للخيرِ ,مجبولةً على الفِطرةِ والطُّهرِ , وهذا ما أَحمدُ اللهَ تعالى عليهِ .

****

*خطوبة

دُرَّةٌ مكنونَةٌ , زَهرةٌ مُتَفتحَةٌ, لا نَظيرَ لها في مَضَاربِ بَني كِلاب , يَتَكررُّ رَفضُ أَبيها لتَنَافُسِ الخَاطبينَ !

أَلا يسوءُها ذلكَ , هل الحَياءُ يمنَعُها السؤالَ عن سببِ الرَّفضِ؟

فَيا تُرَى مَنْ يكونُ ذاكَ الرجلُ العظيمُ الذي ستُهدَى إليهِ هذهِ الجوهرةُ الغَاليةُ ؟

في الظَّهيرةِ ارتَفَعَ نِبَاحُ كلابِ القبيلةِ , وقفَ حزامُ أَمامَ الخَيمةِ , رَأَى غُلامَهُ مالكًا يُهرولُ إليهِ , ويَطرقُ مَسَامعَهُ : سَيِّدي ضَيفٌ حلَّ بمَضَاربِنَا , عليهِ سِيماءُ أَهلِ المدينةِ!

اجابَهُ حزامُ : أَهلاً وسهلاً , حَضِّرْ خيمةَ الضُّيوفِ ولاتتأخَّر.

- سَمعاً وطاعةً سيِّدي.

عادَ يَسأَلُ مالكًا بلهفَةٍ : أَينَ هو الضَّيفُ , كيفَ تَركتَهُ دونَ أَن تَرشُدَهُ إلينا؟

- استوقَفوهُ في مَضاربنا يريدونَ ضِيَافَتَهُ , وهو يأبَى ويَسأَلُ عنكَ لا سِواكَ , هاهم قادمونَ معَهُ .

- وهل تَعرفُهُ؟

- عليهِ سِيماءُ الصَّالحينَ , مَلامحُهُ شَرفٌ وعِزَّةٌ , لعلكَ تَعرفُهُ الآنَ .

أَطَلَّ من المَدى رجلانِ بينهم رَجلٌ يَمتطي جَوادَهُ , اتَّسعَ بؤبؤُ عينيهِ , رَمَقَهُ ببصرهِ محاولاً معرفةَ مَلامحَ وجههِ , استبشَرَ مُحيَّاهُ , هَتَفَ باعتزازٍ : مرحباً يابنَ عَمِّ رسولِ اللهِ أَهلاً بالشَّريفِ ابنِ الشُّرفاءِ , حَلَلتَ أَهلاً ونَزَلتَ سَهلاً , حَلَّتِ البركَةُ في ربوعِ بَني كِلاب .

تَرجَّلَ الضَّيفُ عن جَوادِهِ , سارَ نحوَهُ , تعانقَا طويلاً , سَايرَهُ حتَّى وصلا الخيمةَ !

تحيَّرتْ ثمامَةُ , ماسبَبُ غيابِ حزامٍ عن خَيمتِهِ ؟ , نَظَرتْ غُلامَهُ يروحُ ويَجيءُ , نَادتهُ مُستَفهِمَةً : مَالكُ ؟ ماهناكَ؟

ـ سيِّدتي , ضَيفٌ !

سأَلتهُ : من أَهلِ المَدينةِ أَم من أَهلِ مَكَّةَ؟

- مَكِّيٌّ مَدَنِيٌّ , ابنُ عَمِّ الرَّسولِ , قاصداً سيِّدي حزامًا .

أَردَفَتْ بسؤالٍ آخر : مَنْ هو من أَبناءِ عَمِّ النَّبي؟

- لا أَعلم , لكنَّ سيِّدي أَمرني بنَحرِ الإبلِ اكراماً له .

عادتْ ثمامَةُ إلى خبائها ,أَحسَّتْ بشعورٍ غَريبٍ , كأَنَّهُ حنينٌ إلى محبَّةٍ خَفيَّةٍ , ربَّما هو ذِكرُ النَّبيِّ وآله, وتعلُّقِها وعِشقِها الذي لا يُفارقها وأُسرَتها .

مضتْ ثلاثةُ أَيامٍ وعقيلُ بنُ أَبي طالبٍ لم يَفصَحْ عنِ سَببِ قدومِهِ !

يريدُ مخاطبةَ زَوجتِهِ مُتَحيِّراً , سَارَعَتْ ثمامَةُ بسؤالها : لعلَّهُ يريدُ النُّصرةَ ؟

- لمن يا ثمامةُ؟

ربَّما لأَخيه أَميرِ المؤمنينَ عَليٍّ .

- ازدادَتْ حَيرتُهُ : لستُ أَعلم , صَمتُهُ يُقلقُنِي , في وَجهِهِ خبرٌ ما !

أَردفتْ: الضَّيفُ لايُسأَلُ عن حاجتَهِ إلَّا بعدَ ثلاثةِ أَيام, وها هي قد انقَضَتْ, فَسأَلْهُ ؟

توجَّهَ حزامُ لخَيمةِ ضَيفِهِ , أَرى البَشَاشَةَ في وجهِ عَقيل , يَظهَرُ على مَحيَّاهُ قولُ خَيرٍ بمُجرَّدِ أَن يَنطِقَ.

بادرَ سائلاً : إيهِ يابنَ عَمِّ الرَّسولِ وأَخ وَصيِّهِ , تَشرَّفنا بمكوثِكَ , ولنا الفَخرُ بأَنفاسِكَ الطاهرةِ ,فأَنتَ مِن بيتِ النُّبوةِ والإمامَةِ , نَستَنشقُ فيكَ مِسكَ محمَّد وكوثر عليٍّ , ونشرتَ ذاكَ العَبيرَ الفوَّاحَ بينَنَا .

لَمعتْ عَيناهُ , تَبسَّمَ عقيلُ وكأَنَّه نَطَقَ : سينتَشرُ ذاكَ العطرُ بينَ ظَهرانيكم !

تلميحٌ لم يفهَمْهُ حزامُ , صَرَّحَ قائلاً :أَخي , ربَّما لكَ حاجةٌ عندنا , افصِحْ عنها يابنَ عَمِّ الرَّسولِ ؟!

تَذَكَّرَ حزامُ سؤالَ زوجتِهِ , فأَردَفَ : هل لكَ حاجَةٌ برجالٍ , مالٍ , نحنُ رَهنُ الإشارةِ , نَأتَمِرُ بأَمرِ عليٍّ مولانا لنكونَ في رَكبِهِ ونَرضيهِ , عسى أَن نَنَالَ رضَا اللهِ ورسولِهِ؟

أَفضَى عَقيلٌ بما لديهِ , هتفَ شَاكراً:

أَنتَ أَهلٌ لذلكَ , لكنْ ما لهذا أَتيتُكَ!

أَردَفَ : جِئتُكَ بخيرِ الدُّنيا والآخرة .

حَبَسَ أَنفاسَهُ , ازدادَتْ دَهشَتُهُ : ما ذاكَ يابنَ عَمِّ الرَّسولِ؟

تَنَهَّدَ عَقيلٌ مُجيباً: جِئتكُ خَاطباً!

انتَعَشَ حزامُ بالسَّعادَةِ , سَأَلهُ : مَنْ ولمَنْ؟ نَظَرَ بوجهِ حزامٍ , صَرَّحَ : ابنتكَ فاطمة إلى أَخي إمامِ المُتَّقينَ وسيِّدِ الوصيِّينَ , عليِّ بنِ أَبي طالبٍ .

كادَ قلبُ حزامٍ يقفزُ , تَبسَّمَ , صَمَتَ يَستعيدُ هدوءَهُ , دَمِعَتْ عيناهُ , مسحَهُما بكفَّيهِ , تَنَحنَحَ , حَرَّكَ شَفتيهِ بنَبرةٍ مُتَهجِّدةٍ : ما جئتنا بهِ المَجدُ المَنيعُ والشَّرفُ الرَّفيعُ وخيرُ الدُّنيا والآخرة , أَينَ نحنُ منهُ ؟ وأَينَ ابنَتُنَا منْ حَضرَتِهِ ؟

صَمَتَ حزام هُنيهةً , التقَطَ أَنفاسَهُ , تَحسَّسَ عَظَمَةَ الطَّلبِ , راحَ يَسأَلُ نفسَهُ : هل تَليقُ ابنَتُنا خادمَةً في باحةِ قَدسِ عليَّ بنِ أَبي طالب ؟

وضعَ عقيلُ كفَّهُ على كَتفِ صاحبِهِ , قائلاً:

أَخي عليٌّ يَعلَمُ بما قَدمتُ بهِ , يَرغَبُ في مُصاهَرَتِكم , يَطلُبُ ابنَتِكم للزواجِ لا كَخَادمَةٍ , رَبَّةً لبيتِهِ , وأُمًّا حَنونًا لأَولادِهِ.

طَأطأَ حزامُ رأسَهُ , نَطَقَ: لو بَقيتُ طوالَ عمري أَشكرُ اللهَ على هذهِ النِّعمةِ لمَا وَفيتُ , لكنْ أَمهلني يابنَ عَمِّ الرَّسولِ , استشيرُ أُمَّها في الأَمرِ , هي أَعلمُ بحالِهَا وأَحوالِهَا ,وأَرَى قبولها وبنتها , فهذهِ سُنَّةُ النَّبيِّ.

ذهبَ لَهنَّ , يَستهزئُ بنفسِهِ , وهل لها أَن تَرفضَ ؟

وصلَ خَيمةَ زوجتِهِ , وضعَ يدَهُ يكشفُ الولوجَ , كأَنَّهُ سَمِعَ صوتَ ثمامة تُحدِّثُ فاطمةَ : أَي فاطمة إلا تَسرينَني بما يَعتريكِ ؟

أَنا أُمُّك , ليسَ لكَ غيري في مَشورةٍ أَو نصيحةٍ .

أَجابَتْ أُمَّها : أُمَّاهُ .. لا أَخفي شيئًا من أَمري عليكِ , لا تَقلقي ما بي من سوءٍ.

رَدَّتْ عليها بسؤالٍ : ابنَتِي أَراكَ تَرتعدينَ بينَ الحينَ والآخر منذ أَمسِ !

تَنَهَّدَتْ فاطمةُ , نَطَقَتْ بصوتٍ مُرتَجفٍ : أُمَّاهُ رأيتُ رؤيا عَجيبةً البارحة .

ماهي رُؤياكَ بُنَيَّتي ؟

كأَنَّهُ ليلٌ والقَمرُ بدرٌ يَتَلألأ , أَجلُسُ في روضةٍ ذاتِ أَشجارٍ مثمرَةٍ وأَنهَارٍ جاريةٍ , ذاكَ البدرُ تَشعُّ أَنوارُهُ على الرَّوضَةِ فيكسيها جمالاً

فائضاً وبهجةً رائعةً , النُّجومُ منتشرةٌ حولَ القَمرِ , أَنا كنتُ أُفكِّرُ في عَظَمَةِ الخَالقِ , وإذا بالقمرِ يَنقضُّ من كبدِ السَّماءِ ويقعُ في حِجري , وهو يتلألأ نوراً يُغشي الأَبصَارَ ويُبهرُ العيونَ , تَعجَّبتُ من ذلكَ كثيراً.. زادَ تعجُّبي حينَ رأيتُ ثلاثةَ نجومٍ زَواهرَ تنقضُّ من السَّماءِ نحوَ الأَرضِ وتَسقطُ في حِجري أَيضاً, وهي تتلألأ نوراً وتشعُّ سناءً وضوءً , وإذا بهاتفٍ يَهتفُ بِي :

بُشراك فاطمة بالسادة الغُررِ ثلاثة أنجم والزاهر القمر
بوهم سيد في الخلْق قاطبة بعد الرسول كذا، قد جاء في الخبر

صَمَتَتْ , عاودَها الارتعَادُ , ارتجَفَتْ قائلةً : أُمَّاهُ , انتبهتُ فَزعَةً من نَومي حالَ سَمَاعِي الهاتفَ , أُمَّاهُ : هل تَعرفينَ لرؤيايَ تأويلاً يُريحُنِي , باللهِ عليكِ؟

صوتُ ثمامةَ تَخللَ سَماعَ فاطمةَ , هدأَت من رَوعِها , قائلةً:

بُشراكِ يا فاطمة , رُؤياكِ خيرٌ إنْ شاءَ اللهُ ,تَنبئ إنَّكِ ستُصبحِينَ زوجةً لرجلٍ لهُ عندَ اللهِ جاهٌ عظيمٌ وشأَنٌ رَفيعٌ وقَدرٌ كبيرٌ, سيِّدٌ في قومِهِ مُطاعٌ في عَشيرتِهِ ,عظيمٌ عندَ النَّاسِ كبيرٌ عندَ اللهِ , ترزقينَ منه أربعةَ أَولادٍ , أوَّلُهم أَكبرُهم قدراً وأَعظمُهم منزلةً , يكونُ كالقَمرِ , ويكونُ الثلاثةُ الباقونَ أَمامَهُ كالنُّجومِ الزَّواهر .

استأنَفَ وقوفَهُ حزام , نَفَدَ صبرُهُ , اقتحَمَ الخَيمةَ , سلَّمَ عليهما , انطلقَ لسانُهُ : لقد تَحققتْ رُؤياكِ يابُنيَّةَ, فهذا عقيلُ بنُ أَبي طالب , قد جاءَ يَخطبُ منَّا!

انفرجَتْ أَساريرُ ثمامةَ , غَضَّتْ فاطمةُ طرفَها حياءً , سأَلتهُ زوجتُهُ : لِمَنْ يَخطبها ؟

رَنَّ مسامِعَها بصوتِهِ المُجلجلِ : لِفَلالِ الكتائبِ ومُظهِرِ العَجائبِ ,فارسِ المَشَارقِ والمَغاربِ , أَسدِ اللهِ الغالبِ, عليِّ بنِ أَبي طالبٍ.

ذابَ قلبُ فاطمةَ , تَزَلزَلتْ كزلزالِ الأَرضِ , تَضَرَّجتْ وجنَتُها بحمرةٍ قانيةٍ , نَهَضَتْ من حُضنِ أُمِّها , تَدَثَّرتْ بعباءتِها , تَستَّرَتْ بخِمَارها , انسلَّتْ نحوَ خَيمَتِها .

سأَلَ زوجتَهُ : هل تَرينَها مؤهلةً من وَصيِ رسولِ اللهِ ؟

ـ فاطمةٌ عاقلةٌ لبيبةٌ , أَدَّبتُها بآدابِ العَرَبِ , رَبَّيتها بتربيةِ الصَّالحينَ , فَأَرجو أَن تُبَيِّضَ وجهَنَا عندَ أَمير المؤمنينَ .

أَرادَ حزامُ سؤالَ ابنتِهِ , وجدَ المكانَ فارغاً منها .

هرعتْ ثمامةُ خلفَ ابنتها , إيه فاطمةُ ..أَما يَسرُّك أَن يَخطبك سيّدُ الأَوصياءِ وإمامُ الأَولياءِ , ثاني أَصحَابِ الكساءِ , أَما تَفتخرين؟

رَفَعَتْ وجهَها المشرقَ , غسلتْهُ بدموعِ عينيها , تمالكتْ نفسَها لتردَّ: أُمَّاهُ هو فوقَ السُّرورِ , وفوقَ الافتخار .

- هلْ أَنتِ موافقةٌ ؟

صَمَتَتْ فاطمةُ , طأطأتْ رأسَها , اختنَقَ صوتُها , ضَمَّتها أُمُّها بشدِّةٍ , قَبَّلتها , ذَهَبَتْ لوالدِها أَخبرتهُ بالموافقةِ.

****

*(اقتران)

تهيَّأتْ للِّقاءِ , خائفةً , متوترةً , تعلمُ كرمَ أَمير المؤمنينَ لها لكنَّها تَسأَلُ نفسَها : أَلا أَكون أَهلًا لخدمَتِهِ وخدمةِ أَبنائِهِ ؟

تنازَعتها عَواطفُ شتَّى , فَوراءِ اختيارها كزوجةٍ سرّاً , قَدَراً ينسجُ !

عَلِمَتْ فاطمةُ , توخَّاها أَميرُ المؤمنينَ , لتُنجِبَ لهُ ولداً غلاماً فارساً ينصرُ أَخاهُ الحسينَ !

قبلَ أَن تَدخلَ دارَ أَميرِ المؤمنينَ , لَمَحَتْ بعينيها أُمَّها , هَمَسَتْ في أُذُنيها , انتظروني هنيئةً , لي كلامٌ سأقوله, فإنْ قُبِلَ , وإلَّا , عُدتُ معكم !

شَحَبَ وجهُ ثمامةَ وأَصفَرَّ, حَبستْ أَنفاسَها , ترمقُ ابنتَها , سارتْ فاطمةُ بخطىً ثابتةٍ , دخلتِ الدارَ مطأطأةً رأسَها , خافضةً بَصَرَها .

أَحاطَ الحسنانِ وزينبُ وأُمُّ كلثوم بأَبيهما , نظرتْ إليهم وغَرَقَتْ بالدُّموعِ , هَمَسَتْ بصوتٍ منخفضٍ يفيضُ بالحنينِ: السَّلامُ عليكم ياأَهلَ بيتِ النُّبوَّةِ , ومَوضعَ الرسالةِ ,..السَّلامُ عليكم يا أَحبَّاءَ اللهِ وأَحبَّاءَ رسولِهِ , أَنا خادمَتُكُم , فاطمةُ بنتُ حزام بنِ خالد , جاريةٌ لكم , ولكم عليَّ فرضَ الطاعةِ ماحَييتُ , فهل تَقبلوني بينَكم خادمةً ؟!

ارتفعَ قَدرها في أَعينهم , أَجابها الحَسَنُ بصوتٍ نبرتُهُ ضعيفةٌ , بهدوءٍ وارتياحٍ ليطربَ مسامِعَها ,قائلاً: لستِ خادمَةً , بل أَنتِ أُمٌّ !

اشتعلَ قلبَها قلقٌ على علَّةٍ في الحَسَنِ , تساقطَتْ دُموعُها بغزارةٍ , نطقتْ بإصرارٍ : بل الشَّرطُ أَن أَكونَ خادمةً ,أَو أَعودُ من حيثُ أَتيتُ!

طالتِ النَّظراتُ بينهم , أَميرُ المؤمنينَ يَستَمِعُ ويَرَى , لعلَّه يوحي للحسن بالجَوابِ , فردَّ السِّبطُ : أَهلاً بكِ في بيتِ النُّبوَّة .

انهمرتْ دموعُهَا حتَّى ابتَلَّ خِمارُها , فرحتْ بالجَوابِ , استأذنَتُهم بأَنْ تُكلِّمَ أُمَّها , خرجتْ قائلةً : أُمَّاهُ قبلوني خادمةً , أَنا الآنَ خادمةُ الزَّهراءِ وبَعلِها وبَنيها.

بكتْ ثمامةُ فرحاً لتربيتها ابنتها , تيقَّنتْ ستبيِّضُ وجهَها عندَ أَميرِ المؤمنينَ .

التحقتْ فاطمةُ بركبِ الصَّالحينَ , تلتمسُ هداهم , تَسترشِدُ دربَهم , يَخفَقُ قلبَها بعشقِهِم .

مرَّت الأيامُ , تَمَرَّضَ الحَسَنَان , أَزاحَتْ بصفاءِ نفسِها وسريرتها الكَدَرَ عن زوجِها ,عَبَّرتْ عمَّا يَختَلِجُ في صدرها ,قائلةً لأَميرِ المؤمنين :

مولاي يا أَميرَ المؤمنينَ , لن يَدخلَ السُّرورُ فؤادي حقّاً, طالما أَنَّ الحَسنينِ مَريضَانِ , أَلَمُهُما يؤلمُ مُهجَتي ,اعتلالهما يَعلُّ كياني!

لعلَ أَميرَ المؤمنينَ , أَشارَ لها بعدمِ التَّقصيرِ , كَفَّتْ ووَفَّتْ , خَفضتْ بَصرَها حياءً , شعرتْ أَنَّها مُقصِّرةً: أَنا خادمةٌ لكم يامولاي , كلُّ أُمنيتي في الحياةِ هي خدمتُكم , فإنْ لم أَقُمْ بذلك , لامكانَ لي بينكم!

بارَكَها الإمامُ ,فاضتْ نظراتُهُ نحوها بالمَودَّةِ والرِّضا.

سأَلتْ أَميرَ المؤمنينَ بنبرةٍ مُضمَّخةٍ بالدموعِ : مولاي يا أَميرَ المؤمنينَ , لي إليك رجاءٌ ؟!

أَدركَ أَميرُ المؤمنينَ وراءَ تلك الدُّموعِ المتلألئة في عيني زوجتهِ الوفيَّةِ ,فسأَلها سؤالَ عارفٍ : ماتريدينَ يا فاطمة؟

أَجهَشَتْ بالبكاءِ , قائلةً : باللهِ عليكَ يا أَميرَ المؤمنينَ , بحقِّ ابن عمِّكَ رسولِ اللهِ , بحقِّ مولاتي الزهراء عليكَ , لا تُنَاديني فاطمة !

تابعتْ متوسِّلةً إليه بين شَهيقٍ وزَفيرٍ: مولايَ اسمي يبعثُ الحسرةَ في قلوبِ أَبناءِ سيِّدتي الزهراء , يُحرِّكُ الحنينُ قلوبَهم , مُنادَاتُك لي باسمِهَا الطاهرِ يعيدُ الذكرى في أَعماقهم , ولو كان من عظيم سروري مناداتُكُم لي باسمِهَا المُقدَّسِ , لا أَريد أَن أَكون سبباً في حُزنِ أَولادِ الزهراء , فلا كنتُ ولا أَكون .

هَمَسَ يسأَلها : أَتريدينَ أَن أُناديكِ بأُمِّ البَنين؟

كفكفتْ دموعَها , أَجابتهُ : هو ذاكَ يا أَميرَ المؤمنينَ , تمنِّيَاتي أَكونُ بينكم للمَسَرَّةِ , لا لجلبِ الحزنِ والحَسرَةِ !

****

*(حمل)

أَشرقَتِ الأَنوارُ عليها كالشَّمسِ في عُتمَةِ ظلامٍ , أَقبلَ ثلاثةُ معصومينَ عليها , بَعلُها عليٌّ والسِّبطانِ الحَسَنُ والحُسَينُ من مكَّةَ إلى المَدينةِ بعد أَداءِ فريضَةِ الحجِّ .

ملهوفَةً على خدمَتِهِم , متشوِّقَةً , أَعياها طولُ غيابهِم عنها , كانتا زينبُ وأُمُّ كلثوم بجَنبِها يَستنَشقِانِ عبيرَ الأَحبَّةِ امتلأ الدارُ بأَنوارهم , عَبقنَ بمِسكِ أَنفاسِهم .

يا تُرَى أَلَم تَحج أُمُّ البنينَ كلَّ يومٍ في ظلَّ وليدِ البيتِ الحَرامِ ؟

مضتِ السُّنون بعددِ أَصحابِ أَهلِ الكساءِ مُذْ دَخَلَتْ أُمُّ البنينَ دارَ أَمير المؤمنينَ , تُكرِّسُ خدمَتَها لأَبناءِ فاطمَةَ الزهراء وبعلَها وتَرتوي من مَعينِهِ .

بعدَ خمسةِ أَعوامٍ من زواجِها , كذكرى ميلادِهِ في السَّنة الخامسة للهجرةِ , بعَدَدِ أَصابعِ اليَدِ , كفرائضِ الصَّلاةِ الواجبةِ , شَعَرَتْ حينَ تحرَّكت أَحشاؤها بالبُشرى !

اضطرمَتِ الأَنوارُ في كيانِها حدَّ التَّوهجِ , بذرةٌ طاهرةٌ من ظَهرِ إمامٍ , تُغذيها من طُهرِ فؤادها , وتنبضُ بعشقِ محمَّدٍ وآل محمد!

رأتْ في فضاءِ عيني أَميرِ المؤمنينَ الباسمَتينِ أَطيافَ دموعٍ , سَيبشِرُها بما تَختلجُ بهِ النِّساءُ من تبدُّلٍ وتَغيُّرٍ!

أقدمتْ زينبُ وأُمُّ كلثوم , ضَمَمْنَها لصدورهنَّ , هَنَّأنَها بالحَملِ , ففي أَحشائها بذرةٌ من أَهلِ بيتِ النُّبوَّةِ .

اكتنفها شعورٌ غريبٌ , خَرَّتْ ساجدةً للهِ شاكرةً , أَهي مستودعٌ لسرٍّ من أَسرارِ الخَلقِ , بنورٍ يشرقُ في أَحشائِهَا ويتوهَّجُ؟

****

*(ولادة القمر)

كلَّما مَرَّت الليالي , يَزدادُ الهلالُ وضوحاً , تسألُ خالقَها : رَبَّاه.. ما هذا الهلالُ لا يَشبَهُ سِواهُ من أَهلَّةِ الشُّهورِ؟

تشرقُ بدمعِها حينَ تَرَى دَمعَ الإمامِ , الأَمرُ سِرٌّ, لعلَّها تَخشى أَنْ تسأَلهُ؟

انتصَفَ الشَّهرُ , تَمَاثلَ الهلالُ بدراً , يرتجفُ فؤادُها كلَّما تَذكَّرتْ رؤياها ,تربطُ بينَ هذا القَمَرِ الحزينِ , وقَمَرِ رؤياها التي تأَوَّل بشبلِ أَميرِ المؤمنينَ .

تتوالى الليالي , مَرَّتِ السَّاعاتُ ,ـفي شَعبانَ منَ السنةِ السَّادسةِ والعشرينِ للهجرةِ , تنتظرُ النِّداءَ يطرقُ مَسامعَها أُمَّاهُ!

تبسَّمَتْ بدموعٍ , أَهي دموعُ الفَرَحِ لبلوغ نَجلِهِ الحَبيبِ منَ الثلاثة والعشرين , أَم ذكرى تلوحُ ـفي أُفُقِ الغَيبِ ,تماماً كما تلوحُ الدَّمعةُ ـفي عيني أَبي السِّبطينِ فتأبى النُّزولَ !

انتصَفَ الليلُ ويكادُ ينصرمُ ,جَنينُها تأَهبَ للخروج , استكانتْ بهدوءٍ , ليخرجَ بلا ضَوضاء , فلا يقضُّ مضجَعَ مولاها ومولاه إمامَ المتَّقينَ .

نهضَ أَميرُ المؤمنينَ قبلَ صَلاةِ الَفجرِ , اصطَحَبَ الحسنينِ معه , أُمُّ البنين , صَمت !

اشتدَّ الطَّلقُ وطأةً, أَتقلَقُ حَبيبَتَها الحوراءَ وتزعجَها؟

لابدَّ من حضورِ مَنْ يتلقَّى الأَمانَةَ بين أَضلاعها , قَدِمَتْ زينبُ على وَجهِ السُّرعةِ , سَمِعَتْ بخَطَواتها , سَأَلتها أَنْ تُمنِّي القدومَ عليها ـفي حِجرَتِها ؟

أَحسَّتْ أُمُّ البنينَ على غيرِ عَادتِهَا , بضَعفِها وشُحوبِ لونِها , عَلامَاتٍ لم تَرتَسِمْ على مَلامِحها من قبلُ, تُجاهدُ نفسَها مبتسمَةً في وجهِ الحَوراءِ !

- سَأَلتها بلهفةٍ : أُمَّاهُ , مِمَّنْ تَشتكينَ ؟

- سيِّدتي ومولاتي : أَظنُّها آلامَ المَخاضِ ؟

اعتصَرَ قَلبُ زينب , ابتهجَتْ لأُمٍّ حَبيبَةٍ نذرتْ نفسَها لَهُم , قلقَتْ , أَرسَلتْ بحضورِ القابلَةِ , جهَّزتْ مكانَ ولوازمَ المولودِ , عَادَتْ لأُمِّها تُلاطفُها بحديثها الرَّقيقِ المُحَبَّبِ.

شَقَّتِ الأَسماعَ المتلهفةَ صرخةٌ , خَرَجَ نورٌ ساطعٌ ملأَ المَدى والصَّدى يجيبُه فرحًا...

ولدَ ناصرُ الحُسينِ , نورُهُ يباهي الشَّمسَ في اشراقِها , وهاهي الملائكةُ تَصعَدُ وتَهبطُ, تباركُ أُمَّ البنينِ وزينبَ ولادةَ الكَنزِ الكبير .

قُرِعَ البابُ . هو قنبرُ غُلامُ الإمامِ , يسأَلُ : ما سِرُّ الحَركةِ في أَرجاءِ البيتِ ؟

وحَمَلَ طلباً للحوراءِ من أَبيها , اعطتْهُ طلبَهُ الذي تعرفُ مكانَهُ , سأَلها :

- مولاتي هل أَزِفُّ البُشرى لمَولاي ؟

أَجابتهُ بهدوءٍ وفرحٍ , بَلى ياقَنبر , إنَّها أُمُّ البنين.

خَطَواتٌ , بلغَ الخَبرُ الإمامَ , دَخَلَ بلهفةٍ واشتياقٍ , أَقبلتْ عليهِ زينبُ يشعُّ في عينِها أَلقٌ لم تَعهدهُ حتَّى عند ولادةِ ولدِها, وضَعَتهُ بينَ يديهِ, هو الطفلُ الموعودُ , ملفوفاً بقماطٍ أَبيضَ , لا يزيدُ بياضُهُ على نُصوعِ طَلَّتِهِ البهيَّةِ .

تلقى ولدَهُ , حدَّقَ بين ثنايا قماطِهِ , يشعُّ كالشَّمسِ , تبرقُ أَساريرهِ , تَتَلاقى عيناهُ بعينيهِ النَّجلاوينِ , راحَ الإمامُ يمررُ لسانَهُ الشَّريفَ على عَيني الطفلِ وفَمِهِ وأُذنيهِ!

أَقبلَ أَميرُ المؤمنينَ يَضمُّهُ , يَلثمُهُ , هَنَّأَ الوليدَ بضَمَّةٍ فَتَنَهَّدَ , أَنفاسُ الجنَّةِ تَشرحُ صدرَهُ فيتنشَّقَها مِلءَ أَنفاسِهِ , وأَنوارُ الآخرةِ تنيرُ دربَهُ وناظريهِ.

أَذَّنَ في أُذُنِهِ اليُمنَى , وأَقام في اليُسرى , فأَدخلَهُ على زوجتِهِ التي ارتسمتْ علائمُ السُّرورِ على مُحياها , هَنَّأَها بالمولودِ , لعلَّهُ خاطبَها : بورِكَ لكِ هذا المولودُ , بورِكَ لكَ هذا الشِّبلُ , بوركت من لَبؤةٍ تَحمي ذِمارَ العَرين .

تَمَطَّى المولودُ في قِمَاطِهِ , قطَّعهُ !

تذكرَ الإمام نزولَ جبرائيلُ على النَّبيِّ وأَخبرَهُ الخبرَ!

تساقطتْ دموعُهُ , انحدرتْ على كريمتِهِ , تساقطَتْ على القِماطِ المَقطوع , أَجهشَ بالبكاءِ , سأَلتهُ بحرقةٍ :

ما يُبكيكَ يا أَميرَ المؤمنينَ , أَليسَ هذا المولودُ الذي تَنتظرهُ ؟

مَسَحَ دموعَهُ, كيفَ يُخبرُها ما تَغيبهُ سجوفُ الغَيبِ؟
قد تموتُ غَمّاً إذا علمتْ ما سيجري على حبيبِها الصَّغيرِ , أَجابَها برقَّةٍ وحزنٍ : لا يا أُمَّ البنينَ , تذكرتُ ما جاء به جبرائيلُ لحبيبي محمَّدٍ بشأنِهِ , علمتُ أَنَّهُ سيكونُ ناصراً للحسين !
سأَلتهُ الحوراءُ : ما سَتُسَمِّيه ؟
- نَطَقَ بصوتٍ هادئ :إِنَّهُ العبَّاسُ , كُنيتُهُ أَبو الفَضلِ .
- هو قَمَرُ بَنِي هاشم , وهو السَّقَّاءُ.
هل تحققتْ رؤيا أُمِّ البنينَ , ويا ترى أَطابقَ الحدثُ تأويلَ ثمامة ؟

****

* (كربلاء في صفين)
شهر صفر سنة 37 هـ سار بجيشه إلى صفين بلغ به السير نحو أرض , تمهل في سيره , وقف يتفكر بمشهد فضاء رهيب , سالت عبراته من مأقيه , أقترب منه أصحابه صامتين , لا يدرون ماذا سال من مقلتي أبو تراب, أهي دموع !
سألهم بعناء وعيناه ترنو نحو المكان , ما أسم هذه البقعة ؟
- كربلاء .
لفظ : هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم .
أستأنف سيره , من كان ينعى قرة عينه الحسين ومن معه ؟

أكان ينعى قرة عينه والأبطال باستشهادهم الرهيب والمهيب بعد عشرين عاما ؟

****

* (ولادة رابع الأئمة 38للهجرة)

رأت حفيدة كسرى في منامها، أن النبي دخل دارهم ومعه الحسين, وخطبها له, تعلق قلبها بريحانة الرسول, قضت يومها تفكر بالرؤيا السعيدة, غشيها النوم, رأت السيدة الزهراء تعرض عليها الإسلام, أسلمت, همست في أذنها: إن الغلبة للمسلمين، وأنك تصلين عن قريب إلى ابني الحسين سالمة؛ لا يصيبك أحد بسوء!

تشعر صدى نداء الله أكبر في أحشائها, رباه, ما أكرمك, تذكر أمير المؤمنين إشراقة وجهها يوم جيء بها من بلاد فارس، أيام عمر بن الخطاب, فخاطبه : لا يجوز بيع بنات الملوك وان كانوا كافرين، ولكن اعرض عليها أن تختار رجلاً من المسلمين؛ حتى تزوج منه ويحسب صداقها عليه من عطائه من بيت المال يقوم مقام الثمن.

اختارت الإمام الحسين, سألها الإمام علي : ما اسمك؟

ـ أجابته بصوت منخفض باستحياء: شاه زنان .

قال لها: سيكون مريم .

تبسمت, وأوصى الحسين: أحسن إليها ,فإنها مرضية ستلد لك خير أهل الأرض بعدك, هي أم الأوصياء، الذرية الطاهرة, طأطأت راسها, تبسم الإمام بوجهها المشرق،التفت الإمام إلى سبط النبي: اليوم الخميس الخامس من شعبان, أبشركم بولادة خير أهل الأرض, خرج من الرحم الطاهر كشروق شمس الصباح, احتضنته، رفعته بين يدي الحسين, نقله إلى أحضان جده, غذاه من مناهل علومه سنتين . وكأني به يهمس: يا مريض كربلاء، سترافق أبيك, إنك البقية لذرية الحسين !

****

*(ثكلى في شهادة أبيها)

غرقت في حضن أبيها , بين ذراعيه، تحت عينيه, يضمها كأنها الشوق , يعانقها كآنها الحنين, هل من وراء ذلك قصد ؟

شربت الإخلاص لله , العلم , العطف منه حتى ارتوت كأنّها الصبيب السكيب من الكوثر, غذاها الصبر , الشجاعة ,الفصاحة , أيكون هذا من بعده دون حوار؟

لازالت ثكلى ,مفجوعة برحيل جدها النبي , وأمها الزهراء , أيكفكف الموت عن أبيها ؟

من يتقاسم الحزن معها ويخفف لوعتها !

كان أمير المؤمنين كل ليلة من شهر رمضان يفطر في حجرة أحد أبناءه الأطهار , ليلة التاسع عشر دخل حجرة الحوراء , عدت له افطاره طبقاً من رغيفان خبز الشعير ، وشيء من الملح ، وإناء من لبن .

أهذا أقطار من يحكم نصف العالم ؟

أكتفى برغيف خيز مع الملح , قام يصلي , يبتهل , يتضرع إلى الله . أخذته غفوة قبل السحر , استيقظ , اجتمع أولاده حوله , حرك شفتيه الطاهرتين : إني رأيت ـ في هذه الليلة ـ رؤيا هالتني ، وأريد أن أقصها عليكم!

استغربوا قائلين : وما هي ؟

أردف ..

إني رأيت ـ الساعة ـ رسول الله في منامي ,أخبرني قائلا : يا أبا الحسن إنك قادم إلينا عن قريب ، يجيء إليك أشقاها فيخضب شبيتك من دم رأسك ، وأنا ـ والله ـ مشتاق إليك ، وإنك عندنا في العشر الآخر من شهر رمضان ، فهلم إلينا فما عندنا خير لك وأبقى.

ضجوا بالبكاء , أقسم عليهم بالسكوت ، سكتوا.

عاد لصلاة النوافل , يدعو , تراقبه زينب , قلقاً متململاً, قائماً,راكعاً ,ساجداً ، يخرج ساعةً بعد ساعة ، يقلب طرفه في السماء ,ينظر الكواكب ,ينطق : والله ما كذبت ولا كذبت ، وإنها الليلة التي

وعدت بها . يعود إلى مصلاّه , سمعت قوله : اللهم بارك لي في الموت . «انا لله وإنا إليه راجعون» ،«ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

كلمته الحوراء : يا أباه ما لي أراك في هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد ؟

ـ يا بنية إنّ أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال وما دخل الخوف له جوفاً ، وما دخل في قلبي رعب أكثر مما دخل في هذه الليلة, إنا لله وإنا إليه راجعون .

صمت هنيئة , فأردف : الإنسان من جزع أو حرقة كأنه يقف على جمر .

سالته : يا أباه، ما لك تنعى نفسك في هذه الليلة ؟

ـ أجاب : يا بنية قد قرب الأجل وانقطع الأمل.

تساقطت دموع الحوراء , رن مسامعها بصوت خاشع : يا بنية لا تبكي فإني لم أقل ذلك إلا بما عهد إلى النبي.

نعس ,طوى ساعة , استيقظ , أوصاها : يا بنية إذا قرب وقت الأذان فأعلميني .

لاح الوقت , جاءت الحوراء بإناء ماء , وضعته بين يديه , أسبغ الوضوء ، نهض لبس ثيابه ,فتح باب الحجرة ، نزل إلى ساحة الدار .

سار قليلا , لحقته إوز ,رفرفن ,صحن في وجهه , لهج لسانه : لا إله إلا الله ، صوارخ تتبعها نوائح ، وفي غداة غد يظهر القضاء!

كلمته زينب: يا أبتاه هكذا تتطير ؟!

ـ أجابها :يا بنية ما منا ـ أهل البيت ـ من يتطير ، ولا يتطير به ، اللهم لا طير إلا طيرك , ولا ضير إلا ضيرك,ولا إله غيرك.

«يا بنية ! بحقي عليك إلا ما أطلقتيه ، فقد حبست ما ليس له لسان ، ولا يقدر على الكلام إذا جاع أو عطش ، فأطعميه واسقيه وإلا خلي سبيله يأكل من حشائش الأرض» .

أراد الخروج من باب الدار , تعلق بمئزره , انحل, سقط, عالجه وشده , أنشد:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بناديكا
كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيكا

دعا : «اللهم بارك لنا في الموت ، الله مبارك لي في لقائك» .

تمشي خلفه أم كلثوم , خرقت مسامعه : واغوثاه يا أبتاه ! أراك تنعى نفسك منذ الليلى ؟!

ـ رد عليها :يا بنية ! ما هو بنعاء ، ولكنها دلالات وعلامات للموت . . يتبع بعضها بعضاً.

فتح الباب , خرج.

هرولت إلى أخيها الحسن , تلهث , تلعثمت ,ناشدته : يا أخي قد كان من أمر أبيك الليلة ، وهو قد خرج في هذا الليل الغلس ، فالحقه.

تبعه مسرعا , لحقه قبل دخول الجامع , أمره الإمام بالرجوع , رجع .

بعد الآذان , تعالت أصوت الناس بالنحيب حوله , حملوه , أدخلوه الدار , وضعوه على وسادته , خرجوا , دخلن بناته , صرخن زينب وأم كلثوم بصوت واحد: أبتاه من للصغير حتى يكبر؟! ومن للكبير بين الملأ؟!

يا ابتاه ! حزننا عليك طويل ، وعبرتنا لا ترقأ .

ليلة الحادية والعشرين ,الساعة الأخيرة , يلتقط أنفاسه , العقيلة تجلس بجانبه, تنظر في وجهة,عرق جبينه , مسحه بيده , خاطبته: يا أبه أراك تمسح جبينك ؟

أجابها بصوت منخفض: يا بنية سمعت جدك رسول الله يقول : «إن المؤمن إذا نزل به الموت ودنت وفاته عرق جبينه وصار كاللؤلو الرطب ، وسكن انينه» .

ألقت زينب بنفسها على صدر أبيها , نطقت : يا ابه حدثتني أم أيمن بحديث كربلاء ، وقد أحببت أن أسمعه منك.

رد عليها بصوت خفيف : يا بنية ! الحديث كما حدثتك أم أيمن ، وكأني بك وبنساء أهلك لسبايا بهذا البلد خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس ، فصبراً صبراً.

التفت الإمام إلى ولديه الحسن والحسين , قائلا:يا أبا محمد ويا أبا عبد الله ، كأني بكما وقد خرجت عليكما من بعدي الفتن من ها هنا وها هنا ، فاصبرا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .
يا ابا عبد الله ! أنت شهيد هذه الأمة ، فعليك بتقوى الله والصبر على بلائه .

أغمي عليه وأفاق ، أردف : هذا رسول الله وعمي حمزة وأخي جعفر وأصحاب رسول الله ، وكلهم يقولون : عجل قدومك علينا فإنا إليك مشتاقون .

أدار عينيه في وجوه أهل بيته , سلم عليهم : استودعكم الله، تلا قوله تعالى «لمثل هذا فليعمل العاملون» , «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون». تشهد الشهادتين ,فارق الحياة .

****

* (العقيلة مع الحسن الزكي)

كفكفت دموع عينيها الجميلتيْن المتأثرتيْن دائما لرهافة قلبها, تتأمل في وجه أخوها الإمام الحسن الزكي , خفف عنها اللوعة , أمامها , أخيها الأكبر .

يرى مدى الشوق على أبيها في ملامح وجهها , يغطيه العشق الالهي كستار , حن لشوقها , كساها محبة , مودة , ظلها بظل لا يفارق و طيف لا يمارى.

سطع وهجه في روحها , تكلمه بهمسة قلب , يجيبها بتصميم عقل وعزم بطولة !

أهو الاعداد الأخير لواقعة الطف , وتحمل المصائب في مسيرة كربلاء ؟

****

* رحيل الحسن

عشرة سنين في السابع من صفر, دق جرس اللوعة في هواجس زينب , عالمة , محدثة , أتنبأت بما سيحدث؟

أعلمت الحوراء بغضب معاوية من شبيه المصطفى ؟

افتتح مدرسة علمية في المدينة , تصدى لمسخ السنة النبوية نشر الثقافة الدينية الرسالية , بث الوعي الديني والسياسي في أوساط المجتمع , هل أشتاط غضب معاوية من إنجازات سبط النبي لبناء قاعدة جماهيرية صلبة ؟

ظل معاوية يصارع أوهامه ,يتسأل مع نفسه , لا يعبه بأركان النظام , لا نستطيع التخلص من المناوئين لوجوده , والادهي معاهدة الصلح تدعو إلى خلافته بعدي !

قرر أن يخطب يوم الجمعة بحضور الحسن السبط , صعد المنبر ,حمد الله وأثنى عليه ، صلّى على نبيّه ، ذكر أمير المؤمنين وسيّد المسلمين علي بن أبي طالب ,انتقصه قائلا: « أيّها الناس! إنّ صبية من قريش ذوي سفه وطيش وتكدّر من عيش أتعبتهم المقادير ، فاتّخذ الشيطان رؤوسهم مقاعد ، وألسنتهم مبارد ، فأباض وفرخ في صدورهم ، ودرج في نحورهم ، فركب بهم الزلل ، وزيّن لهم الخطل، وأعمى عليهم السُبل ، وأرشدهم إلى البغي والعدوان والزور والبهتان ، فهم له شركاء وهو لهم قرين (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً)وكفى لهم مؤدّباً ، والمستعان الله » .

وثب إليه الحسن مندفعاً كالسيل رادّاً عليه افتراءه وأباطيله قائلاً :« أيّها الناس! من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ، أنا ابن نبيّ الله ، أنا ابن من جعلت له الأرضُ مسجداً وطهوراً ، أنا ابن السراج المنير ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم النبيّين ، وسيّد المرسلين ، وإمام المتّقين ، ورسول ربّ العالمين ، أنا ابن من بعث إلى الجنّ والإنس ، أنا ابن من بعث رحمةً للعالمين ».

شقّ على معاوية كلام الإمام ,بادر إلى قطعه , حرك شفتيه: « يا حسن! عليك بصفة الرطب ».

رد عليه الحسن : « الريح تلقحه والحرّ ينضجه، والليل يبرده ويطيبه ، على رغم أنفك يا معاوية » , أردف مسترسلا: « أنا ابن مستجاب الدعوة ، أنا ابن الشفيع المطاع ، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ، ويقرع باب الجنّة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبيّ قبله ، أنا ابن من نصر على الأحزاب ، أنا ابن من ذلّت له قريش رَغماً ».

غضب معاوية , صرخ : أما أنّك تحدّث نفسك بالخلافة.

أجابه الإمام: أمّا الخلافة فلمن عمل بكتاب الله وسنَّة نبيّه ، وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وعطّل السنّة ، إنّما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكاً فتمتّع به، وكأنّه انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه.

انحط كبرياء معاوية , راوغ قائلا: ما في قريش رجل إلاّ ولنا عنده نِعَم جزيلة ويد جميلة.

رد عليه الحسن: بلى ، من تعزّزت به بعد الذلّة ، وتكثّرت به بعد القلّة.

سأله معاوية : من أُولئك يا حسن ؟

أجابه : من يلهيك عن معرفتهم .

أردف الإمام مسترسلا: أنا ابن من ساد قريشاً شاباً وكهلاً ، أنا ابن من ساد الورى كرماً ونبلاً، أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالجود

الصادق ، والفرع الباسق ، والفضل السابق ، أنا ابن من رضاه رضى الله ، وسخطه سخطه ، فهل لك أن تساميه يا معاوية ؟

تلعثم معاوية قائلا: أقول لا تصديقاً لقولك!

رن مسامعه الإمام: الحق أبلج، والباطل لجلج ، ولم يندم من ركب الحقّ ، وقد خاب من ركب الباطل (والحقّ يعرفه ذوو الألباب).

عاد معاوية يراوغ : لا مرحباً بمن ساءك.

ضاق معاوية ذرعاً بالحسن , عرض عليه المصاهرة , رفض مصاهرة الامويين , لعل الإمام أخبر العقيلة بما يجري, وأيدته بمعاهدة الصلح .

أحس معاوية تورطه بشروط المعاهدة , بدأ ينقضها واحدا بعد آخر, أنصب تفكيره بتوريث يزيد من بعده , وهذا لا يتم بوجود الحسن !

أجتمع مع مستشاريه , طلب منهم طريقة مناسبة للتخلص من الإمام , عرض عن مقترحاته بتصفيته بالعلن.

توصلت أفكاره إلى اغتياله بتنفيذ عملية سرية , أرسل لزوجته جعدة بنت الأشعث رسولا يبلغها وضع السم لزوجها , مقابل إقطاع عشرة ضياع من سورار وألف درهم وتزويجها من يزيد !

الحوراء ترى معاملة أخيها لزوجته جعدة العاقر , يفضلها على زوجاته , يغمرها بالعاطفة الجياشة , لكن زينب تشعر بإحساس غريب تجاهها !

فكرت جعدة بالعرض , زين لها شيطانها هذا الغراء , وافقت .

قدمت الطعام المسموم لزوجها , وضعته بين يديه , نظر الإمام في فيه , اسمعها قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله على لقاء محمد سيد المرسلين، وأبي سيد الوصيين وأمي سيدة نساء العالمين، وعمي جعفر الطيار في الجنة، وحمزة سيد الشهداء .

رفعت جعدة المائدة, بدأ السم ينتشر داخل جسمه,يقطع أمعاءه , يسري بألم , اشتدّ به الوجع , التفت إلى أهله , نطق :أخرجوني إلى صحن الدار أنظر في ملكوت السماء.

حملوه إلى صحن الدار ، استقرّ به ,رفع رأسه يناجي ربّه ,تضرع إليه : اللّهم إنّي احتسب عندك نفسي ، فإنّها أعزّ الأنفس عليَّ لم أصب بمثلها ، اللّهم آنس صرعتي ، وآنس في القبر وحدتي.

وقف بجانبه السبط الحسين , بكى .

سأله الحسن : ما يبكيك يا أبا عبد الله؟

نطق بصوت حزين: أبكي على ما أراك فيه.

أردف الحسن بصوت منخفض: إن الذي يأتي إليّ بسمّ يدبّر فأقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله يزدلف إليك ثلاثون

ألف رجل، يدّعون أنهم من أمة جدنا، وينتحلون دين الإسلام في فيجتمعون على قتلك، وسفك دمك، وانتهاك، وسبي ذراريك ونسائك وأخذ ثقلك، فعندها تحلّ ببني أمية اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودماً، ويبكي عليك كلّ شيء حتى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار.

ساعة ظل الإمام يكابد الألم , سيطر السّم على كل أنحاء جسمه , أدرك قرب منيته ,شكا لأخيه الحسين قائلاً: يا أخي سقيت السّم ثلاث مرات لم أسق مثل هذه، إني لأضع كبدي, فجعلت أقلبها بعود معي .

سأله الحسين : من سقاك؟

أجابه الحسن : أتريد أن تقتله إن يكن هو فالله أشد نقمة منك و إن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بي بريء .

أصفر لونه، أخذ يميل إلى الاخضرار , نطق الحسين : مالي أرى لونك إلى الخضرة؟

تساقطت دموع الحسن على خديه , حرك شفتيه : يا أخي لقد صحّ حديث جدي فيّ وفيك.

تعانقا طويلاً وتعابرا, بكيا كثيراً, لهج لسان الحسين , يسال أخاه عن حديث رسول الله؟

أجابه : أخبرني جدّي : لما دخلت ليلة المعراج روضات الجنان، على منازل أهل الإيمان رأيت قصرين عاليين متجاورين على صفة واحدة إلا أن أحدهما من الزبرجد الأخضر والآخر من الياقوت الأحمر، سأل النبي: يا جبرائيل لمن هذان القصران ؟

رد عليه : أحدهما للحسن والآخر للحسين.

وجه له سؤال آخر: يا جبرائيل فلم لا يكونان على لونٍ واحد؟

سكت ولم يرد جواباً، أستغرب النبي سكوته , نطق : لم لا تتكلم؟

ـ حياءً منك.

أقسم عليه النبي :سألتك بالله إلا ما أخبرتني.

أجابه: أما خضرة قصر الحسن فإنه يموت بالسم ويخضر لونه عند موته، وأما حمرة قصر الحسين فإنه يقتل ويحمر وجهه بالدم.

التقط الحسن أخر أنفاسه , يتلو الذكر الحكيم ,يبتهل ,يناجي ربه , نطق كلمته الاخيرة : عليكم السلام يا ملائكة ربي ورحمة الله وبركاته ,عرجت روحه الطاهرة إلى بارئها.

تباطأت خطى زينب , ارتسمت في مخيلتها , رحيل النبي , أمها الزهراء , أبيها علي , أحسستُ أنَّ ساقيها لا يسعفانها على السير بوثوق , ودمعاً يشكل سيلين يتدفقان على وجنتين غدتا شاحبتين وبانتا متغضنتين أشد مما أبصرتهما به , فتحت عينيها في وجه,

صاحت: واأخاه ! واحسناه !واقلة ناصراه! يا أخي من الوذ به بعدك؟!وحزني عليك لا ينقطع طول عمري !

بكت تلثم خديه وتتمرغ عليه ، تبكي طويلاً.

أتزوجت جعدة من يزيد ؟

كيف ماتت من قتلت زوجها سبط النبي ؟

****

* شعاع من صلب السبطين

اختار لابنه السجاد زوجة كغصن من أغصان الشجرة النبوية , عابدة زاهدة, عالمة فقيه , صديقة طاهرة , فاطمة بنت أخيه الإمام الحسن , أيريدها ترافقه في واقعة الطف؟

يناديها زين العابدين : ياصديقة !

عام 56للهجرة تعانقت حمرة الشمس الغاربة مع هلال بزغ على حين غرة , تصارع توهجهما , أضاء منهما شعاع كالبدر المنير!

لم تبالِ أرهق الم الوضع , تهلل وجه الصديقة , كأنها تبشر أهل البيت بما ينتظرونه!

بزغ كالشمس فاشرق الدنيا بتوهجه , اخترق مسامعه نداء الآذان من حنجرة الحسين المقدسة , الاقامة تعبق في اليسرى .

بعد سبعة أيام نطق الحسين :بشر به النبي في حياته , سماه الباقر .

ارتوى السجاد من أبيه , بقلب بخفق بعشق والده , ليعشق وليده بأنفاس الحياة , فأطلق : هو محمد الباقر .

لعل الحسين تبسم بسمته الهادئة التي تشرق بها ثناياه.

وأكيد وضعه السجاد في حجره , ضمه , قبله , ربما همس في أذنه: , أيه ياولدي سترافقنا , أنت ووالدتك في طف كربلاء , ترى جدك مقطع الأشلاء!

التفت زين العابدين إلى أبيه الحسين , حرك شفتاه : ياسيدي يا أبا عبد الله , ما أجمله .

ـ بني يشبه جده رسول الله , هو الإمام من بعدك كما أنك الإمام من بعدي.

وما يدريني لربما تأمل الحسين في وجهه , حرك لسانه الطاهر هامسا في أذنه : ستشاهد بأم عينيك ملحمة عاشوراء!

يا لسر الله الأعظم , وحفظه لأوليائه , لو يعلم معاوية بولادة أمام منصوص عليه ,أيتركه حيا؟

الإمامان السجاد والباقر بعد مقتل الحسين إحياء, ألا يعلم يزيد بإمامتهما؟

****

الفصل الثالث
(صراع)

*(أبت روحه إلى جهنم)

اهتزت اعطاف معاوية عشرين عاما أميراً , وجشمه الحرص عشرين عاما ملكا في جميع البلدان الإسلامية , دس السم لصحابة النبي ويكرر لله جنود من عسل حتى نكث البيعة مع الحسن سبط الرسول وسمه بيد زوجته جعدة ,يطارده شبح الموت , أرهق نفسه حدثها بما يزول:من سيشغل الفراغ من بعدي ؟

من سيأخذ ديون بني أمية من آل محمد ؟

أحس خمود صحته , ودنو نهايته ,القلق ,الرعب , الخوف يلاحقه ويجره من أذنيه إلى التفكير ببدعة إرساء ولاية العهد في أدمغة المسلمين , أغاب عن وعيه يوم الغدير ومجلس شورى المسلمين؟

مسلم بن عقبة يطمح بمنصب بعد موت معاوية , تكلم مسرعا: يا أمير المؤمنين إنا نرى الناس ونسمع كلامهم ونرى أن الأمر في يزيد وهو أهمٌّ له (أقدر عليه بهمته) وهو لهم رضى ، فبادر إلى تسميته من قبل أن يعتقل لسانك.

ـ صدقت يا مسلم إنه لم يزل رأيي في يزيد ، وهل تستقيم الناس لغير يزيد ، ليتها في ولدي وذريتي إلى يوم الدين وأن لا تعلو ذرية أبي تراب على ذرية آل أبي سفيان) !

جر أنفاسه , بلور فكرته , وسوس له شيطانه : أخذ البيعة ليزيد وأحاصر ابن بنت رسول الله !

كلف مروان بن الحكم يعرض الآمر على المسلمين في المدينة , جابهته معارضة رهيبة , وقف عبد الرحمن بن أبي بكر وسط جمع أهل المدينة, صرخ : كذبت وكذب من أمرك بهذا والله ما يزيد بمختار ولا رضئ ولكن تريدون أن تجعلوها هرقلية، ويزيد هو يزيد القرود ويزيد الفهود ويزيد الخمور.

رد الإمام الحسين على خطابه : كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما إحتويته بعلم خاص وقد دل يزيد على موقع رأيه فخذ من يزيد مما أخذ به من استفزازه الكلاب الهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً ودع ما تحاول فما أغناك أن تلقى الله بزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية.

ـ الرد بين يدي معاوية يقرأه ويتبسم , رفع رأسه نطق بمجلسه : رجلان إن ماتا لم يموتا ، ورجل إن مات مات ! أنا ، إن متُّ خلفني ابني ، وسعيد (بن العاص الأموي) إن مات خلفه عمرو ، وعبد الله بن عامر (بن كريز الأموي) إن مات مات !

قرر الابغال في سرعة إنجازه , أرسل ولاته إلى بقية الأمصار, ساقوا الوفود بالسيوف لبيعة يزيد .

أختل نظامه , تقهقرمنتصف رجب ستين من الهجرة ,أصابه العطش , وجده أضمحل , يرتجف جسده كصعقات كهرباء , يتقلب على فراشه , يغشى عليه فيستفيق يصرخ ليل نهار متألما: أسقوني .. أسقوني !

أمر باستدعاء أسقف النصارى , دخل عليه , شكى له : أزداد عطشا كلما أرتشف منه .

خلع الصليب من عنقه علقه بعنق معاوية , بضع ساعات أغمض عينيه ,انفصلت روحه عن جسده .

****

*(أخذ البيعة)

اهتزَّ كيانُهُ فزعًا , فكتب إلى عاملِهِ الوليد بن عتبة: أَمَّا بَعدُ، فَخذْ حُسينًا وعبدَ الله بن عمر، وعبدَ الله بن الزبير بالبيعة أَخذًا شديدًا ليست فيه رخصةٌ حتَّى يبايعوا، أمَّا الحسينُ فإنْ أَبَى , فاضربْ عُنَقَهُ وابعثْ إليَّ برأسِهِ والسلام!

ليلة السبت لثلاث بقينَ من رجب سنة ستين, ارتعش الوليدُ وهو يقرأ رسالة يزيد, ويفتحُ جفنيه بقوةٍ كلَّما استعاد قراءتها: فأضربْ عنقَهُ!.

قررَّ أَلَّا يتهوَّر محدِّثًا نفسَهُ , يابنَ العمِّ أَيّها الخمَّار تريدُ الخلاصَ مِن ابن بنتِ رسولِ الله بيدي , هيهاتَ .. سألاعبك!

مروان يرى نفسه أَرجحُ من يزيد .

وسخط معاوية , لنشركه في الرأي , نادى الحاجب : هَلُمَّ إليَّ بمروان بن الحكم .

سألَهُ كيفَ ترى أَن أَصنع؟

ـ لصق شفتيه , هم بالسلطة , فرصتك يامروان لتضرب حجرًا بعصفورين, وتفرغ الساحة لك ولابنك , نطق : الحسينُ لا يقبل ,ابعث الساعة لهؤلاء النَّفرِ, فإنْ فعلوا قبلت، وإنْ أَبوا ضربت أَعناقهم قبل أَن يعلموا بموت معاوية.

ـ تأمل بالرأي , ردد بعقله : هيهات يابن مغنية الحي , أضربُ عنقَهُ , ليتني لم أَكُ شيئًا مذكورًا.

التفت إلى الحاجب: ارسلْ غلامًا إلى الحسين في مسجد جده ليأتيني الليلة .

سارَ مسرعًا وقف بين عبد الله بن الزبير والحسين قائلا : أَجيبا الأمير.

ـ الآن نأتيه , انصرف .

استدار ابنُ الزبير بوجهه نحو الحسين سأله مستغربا : ما تظنُّ فيما بعث إلينا؟

ـ طاغيتهم قد هلك، وقد بعث هذا إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشوا الخبر.

- فما تريد أن تصنع؟
- أجمعُ الساعة من أهل بيتي وموالي ثلاثين رجلًا , ثم أسير إليه.

أَما أَنا ياسبطَ النَّبيِّ , سأكمنُ بداري من الليلة , وأصطحب أخي جعفر, وأغادرُ متنكرًا إلى مكة .

أَخبرَ الحسينُ فتيته فتدججوا بالسلاح , ثم أَبلغهم :إذا دخلت أجلسوا على الباب، فإنْ سمعتم صوتي قد علا ادخلوا عليه لتمنعوه عنِّي.

صارَ الحسينُ في مجلس الوليد , رأى ملامح الغدر بوجه مروان, نعى الوالي رحيلَ معاوية , قرأ عليه كتابَ يزيد, وما أمره فيه من أخذ البيعة.

حسَّ الإمام بخوف الوليد من الرفض , نظر لعيني مروان فرآها تتحينُ الفرصة , أَجاب الوالي : لا خيرَ في بيعة سرٍّ، والظاهرة خيرٌ، فإذا حضرَ الناسُ كان أمرًا واحدًا.

ـ استبشرَ الوليدُ ودارَ في خلده لعل الحسين يختفي عن الأنظار أو يوافق ليتجنب قتله ,فأردف : أجل .

تفوَّه الإمامُ : تصبحُ وترى رأيك في ذلك.

ـ انصرفْ على اسم الله حتَّى تأتينا مع جماعة الناس.

وفي تلك اللحظة وسوسَ الخنَّاسُ في قلب مروان لينثر شرَّهُ في فضاء مسامع الوالي : واللهِ لئن فارقك الحسينُ الساعةَ ولم يبايع, لا قدرتَ منه على مثلها أبدًا، حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، ولكن احبس الرجلَ فلا يخرجُ من عندك حتَّى يبايع أَو تضربَ عنقَهُ.

اخترقَ كلامُهُ أُذني الإمام, استدار بوجه لمروان وحرَّكَ شفتيه : ويلي عليك يا ابنَ الزرقاء ! أَنتَ تَأمرُ بضرب عنقي؟! كذبتَ واللهِ ولؤمت, واللهِ لو رام ذلك أحدٌ من الناس لسقيتُ الأرضَ من دمِهِ قبل ذلك، وإنْ شئتَ ذلك فاضربْ عنقي إنْ كنتَ صادقًا.

والتفت إلى الوالي قائلا: أَيّها الأَمير إنَّا أَهلُ بيتِ النُّبوةِ، ومَعدنُ الرسالةِ، ومُختلفُ المَلائكةِ، ومَحلُّ الرحمة, بنا فتحَ اللهُ وبنَا ختم, ويزيد رجلٌ فاسقٌ، شاربُ الخمر، قاتلُ النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق، ومثلي لا يبايعُ مثلَهُ، ولكن نصبحُ وتصبحونَ، وننظرُ وتنظرونَ أيّنا أحقُّ بالخلافةِ والبيعةِ.

صدى أَصواتٍ , صليلُ سيوفِ الفتية كالصَّاعقةِ, أَدخَلَ الرُّعبَ في القلوب , سارَ لهم الحسينُ مسرعًا , أَمَرَهُم بالانصرافِ , ثُمَّ تَوجَّه إلى قبرِ جدّه .

التفتَ الوليدُ إلى مروان قائلا: أَتشيرُ عَلَيَّ بقتلِ ابنِ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ ؟؟ واللهِ إنَّ الذي يحاسبُ بدمِ الحسينِ يومَ القيامة لَخَفِيفُ المِيزانِ عندَ الله .

****

*(رؤية سبط النبي)

خرج ريحانةُ الرَّسول ليلةَ الاثنين لقبر جَدِّهِ , صلَّى أربعَ ركعاتٍ , رفعَ كفَّيه: اللّهم هذا قبرُ نبيِّكَ محمّد، وأنا ابنُ بنتِ نَبيِّك، وقد حَضَرَني مِنَ الأَمرِ ما قد عَلِمتَ، اللّهم إنِّي أحبُّ المعروفَ، وأنكرُ المنكرَ، وأَنا أَسألُكَ يا ذا الجلالِ والإكرام بحقِّ القبر ومَنْ فيهِ إلَّا اخترتَ لي ما هو لكَ رِضًى، ولرسولِكَ رِضًى.

بكى , وضعَ رأسَهُ على القبر , غَفَى , رَأَى النَّبيَّ تُحيطُهُ كتيبةٌ من الملائكة , ضَمَّ سبطَهُ إلى صدره , قبَّله بين عينيه , خاطبَهُ : حبيبي يا حسين، كأَنِّي أَراكَ عن قريبٍ مرملًا بدمائكَ، مذبوحًا بأرضِ كربٍ وبلاء، من عصابةٍ من أمَّتي، وأنتَ مع ذلك عطشانٌ لا تُسقى، وظمآنٌ لا تُروى، وهم مع ذلك يرجونَ شفاعتي، لا أنالهم الله شفاعتي يومَ القيامة، حبيبي يا حسين إنَّ أَباكَ وأَمكَ وأَخَاكَ قَدمُوا عليَّ وهم مشتاقونَ إليكَ، وإنَّ لك في الجنانِ لَدَرَجَات لَن تَنالَها إلَّا بالشهادةِ.

ـ كلَّمهُ: يا جدَّاهُ لا حاجةَ لي في الرُّجوع إلى الدُّنيا فَخُذني إليكَ وأدخلني معكَ في قَبرِكَ.

يا بُنَيَّ لابد لك من الرُّجوع إلى الدُّنيا حتَّى تُرزقَ الشهادة، وما قد كتبَ اللهُ لك فيها من الثوابِ العظيم، فإنَّكَ وأَباكَ وأَخَاكَ وعَمَّكَ وعَمَّ أَبيكِ تُحشرونَ يومَ القيامة في زُمرَةٍ واحدةٍ، حتَّى تدخلوا الجنَّة.

استيقظَ مَسرورًا , صلَّى الصُّبحَ , عادَ لمنزلِهِ, قصَّ رؤياهُ على أهلِ بيته وأَبناءِ عَمِّهِ .

****

*(نصيحة)

يكلِّمُ نفسه خائفًا, ماذا؟ أَيقتَلُ أَخي , سأحاولُ منعَهُ , حدَّثهُ بحبِّه لَهُ , كيفَ شَرَّفهُ اللهُ عليه وجعلَهُ من ساداتِ أَهل الجنَّةِ , نَصَحَهُ, تَنَحَّ ببيعتِكَ عن يزيد بن معاوية , قَدَّمَ مَشورتَهُ في دعوةِ النَّاسِ إليه , ختمَ نُصحَهُ : إنِّي أَخافُ أَن تَدخُلَ مصرًا من هذهِ الأَمصارِ فيختلفُ النَّاسُ بينهم, فمنهم طائفةٌ معكَ وأخرى عليك، فيقتتلونَ فتكونَ أَنتَ لأَوَّلِ الأَسنَّةِ غَرَضًا، فإذا خيرُ هذهِ الأمَّةِ كلّها نفسًا، وأبًا وأمًا، أضيَعُها دَمًا، وأذلّها أهلًا!

نظرَ الإمامُ لعينيه , حرَّكَ شَفتيه : فأَينَ أَذهبُ يا أَخِي ؟

ـ عادَ يعرضُ مُقترحاتِهِ ويُقدِّمُ خيارتِهِ : انزلْ مكَّةَ أو اليمن حتَّى تنظرَ ما يَصيرُ أَمرُ النَّاسِ إليه ويحكمُ الله بيننا وبين القوم الفاسقين، فإنَّكَ أَصوبُ ما تكون رأيًا حين تستقبلُ الأَمرَ استقبالا.

أَجابَهُ الحسينُ بعزمٍ : يا أَخِي واللهِ لو لم يكنْ ملجأ، ولا مَأوى لما بايعتُ يزيد بن معاوية.

ـ تلعثمَ , تَمتَمَ : ماذا تقولُ لأَبيكَ يا محمَّد بن الحنفية , فواللهِ ـ يا أَخِي ـ ما أَقدرُ أَنْ أَقبضَ على قائمِ سيفٍ، ولا كعبِ رمح، فواللهِ لا فَرِحتُ بعدك أَبدًا! أُغرقتْ عيناه بالبكاء ,أغشي عليه .

أَفاقَهُ الإمام هامسًا بمسامعه : وأَمَّا أَنتَ يا أَخِي فلا عليكَ بأنْ تقيمَ بالمدينة فتكونَ لي عَينًا لا تخفي عني شيئًا من أمورهم.

يصغي لكلام أَخيهِ ودموعُهُ تسيلُ على خدَّيه , فأردفَ الإمامُ : يا أَخِي جزاكَ اللهُ خيرًا, قد نصحتَ وأَشفقتَ، وأَرجو أَنْ يكونَ رأيكَ سديدًا موفقًا, وأَنا عازمٌ على الخروج إلى مكَّة، وقد تهيأتُ لذلك أَنا وإخوتي وبنو أَخي وشيعتي، وأمرهم أَمري ورأيهم رأيي.

رفعَ الحسينُ رأسَهُ وطلبَ بدَوَاةٍ وبَياض, فكتب

: بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيم، هَذا مَا أوصَى به الحُسينُ بنُ عليّ بنُ أَبي طالب إلى أَخِيه مُحمَّد بن الحَنَفيَّة، أنَّ الحسين يشهدُ أنْ لا إله إلاَّ الله، وَحدَهُ لا شريك له، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، جَاء بالحقِّ من عنده. وأنَّ الجنَّة حَقٌّ، والنَّارَ حَقٌّ، والسَّاعة آتيةٌ لا ريبَ فيها،

وأَنَّ الله يبعثُ مَنْ في القبور. وإنِّي لم أَخرج أَشِرًا ولا بَطِرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا, وإنَّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمَّة جَدِّي .

أريدُ أنْ آمُرَ بالمعروفِ وأنْهَى عنِ المنكر، وأسيرُ بِسيرَةِ جَدِّي، وأَبي عليِّ بنِ أَبي طالِب ، فَمَنْ قَبلني بقبول الحق فالله أولى بالحقِّ، ومن ردَّ عليَّ هذا أصْبِرُ حتى يقضيَ اللهُ بيني وبين القوم، وهو خَيرُ الحاكِمين. وهذهِ وصيَّتي يا أَخِي إليكَ وما توفيقي إلَّا باللهِ عليه توكَّلتُ وإليهِ أُنيب.

طوى الكتابَ وخَتَمَهُ ودَفَعَهُ إلى أَخيهِ محمَّد ثُمَّ وَدَّعَهُ.

****

*(وداع)

مضى أَكثرَ من خَمسينَ سنةٍ, صدى ذلكَ اليوم محفورٌ في ذاكرتها, عَزَمَ السِّبطُ على الخروج, ودَّعها, استرجعتْ مشاهدَ ليلةِ العاشر مع النَّبيِّ, وقفتْ أُمُّ سَلَمَة تسأل نفسَها: ياربِّ هل كتبتَ لي الامتحانَ بهذه المصيبةِ التي تهدُّ الجبال؟

رآها الحسينُ وجلةً مذعورةً من الوداع, خاطَبَها:

أُمَّاهُ, يقضي اللهُ أَمرًا كانَ مفعولا.

اختنقتْ بعَبرَتِها: ياوَلدي كلَّ يومٍ يلهَجُ لساني بحمدِ اللهِ, وأَقولُ ما زَالَ ولدي وحبيبي وقُرَّة عيني حيًّا, اسْتَأْذَنَتْهُ, جلبت القارورةَ ووضعتها بينَ يديهِ قائلةً: لاتخرجُ, فإني سمعتُ جدَّكَ يقول: إنَّ ابني

الحسين يُقتلُ بأَرضِ العراق، وعندي تربة من تلكَ الأرض اعطانيها رسولُ الله.

ـ أُمَّاهُ: إذا فاضَتِ القارورةُ دَمًا، فاعلمي أَنِّي قُتلت.

****

*(رسائل ومبعوث)

لَحِقَ الأمَّةَ عارٌ بعد تسلّم يزيد الخلافة , ممَّا دعا أهل الكوفة الى إرسال الرسائل المتكررة لابن بنت رسول الله في المدينة , أرسلوا له الدعوة يحملونه المسؤولية أَمام الله والأمَّة إنْ تأخر عن إنقاذهم من ظلم الأمويِّين وعُنفهم.

تمهل الإمامُ, تأمَّل قبل أن يمتطي راحلته , ارتأى أَن يبعث مبعوثا فطنا وأمينا يوافيه بالأخبار !

وقع اختياره لهذه المهمة على ثقته وابن عمه , حمَّله رسالة لأَهل الكوفة : مِن الحُسينِ بن عَلي إِلى مَن بلغهُ كتابي هذا مِن أوليائِه وَشيعَتِه بالكوفة: سلامٌ عليكم، أما بعد: فَقَد أَتَتْني كُتُبكُم، وفهمتُ ما ذكرتُم مِن مَحبَّتِكم لِقُدومِي عَليكم، وأنا بَاعثٌ إِليكم بِأخي وابنِ عَمِّي وثِقتي من أهلي مسلم بن عقيل، لِيعلمَ لِي كُنْهَ أمْرِكُم، ويكتبَ إِليَّ بما يَتبَيَّن له من اجتماعِكُم، فإن كان أمرُكم على ما أَتَتْني بِه كُتُبُكم، وأخبَرَتني به رُسُلُكم، أسرعتُ القُدومَ إليكُم إِن شَاء اللهُ، وَالسَّلام.

ودَّعَ أهلَه وعمومَتَهُ ومضَى من مكَّة إلى ضريح النَّبيِّ يطوف حوله , صلَّى , سار يطوي البيداء حتى وصل ونزل ببيت المختار , سارع الناس يبايعونه تحت لواء الحسين.

استبشر مسلم حين بايعه ثمانية عشر ألفًا, كتب إلى الإمام يستعجله القدوم : فإنَّ الرائدَ لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا، فَعجِّل حين يأتيك كتابي، فإن الناس كُلُّهم معك، ليس لَهم في آل معاوية رأي وَلا هَوى.

سارع جواسيس يزيد إلى والي الكوفة النعمان بن بشير يطلعونه على ما يدور ويجري , رَدَّهم : إنِّي لا أقاتل إلَّا مَنْ يقاتلني, ولا أَثبُ إلَّا على مَن يثبُ عليَّ, ولا أخذُ بالظَّنة أَحدا .

هتف أَحدُهم : هذا رأي المستضعفين .

زجرهُ الوالي قائلًا : لأَنْ أكونَ ضعيفًا وأنا في طاعة الله أحَبُّ إليَّ من أَن أكون قويًا في معصية الله، وما كنتُ لأهتك سترًا ستره الله.

كتبوا إلى سيِّدهم يزيد في دمشق : مسلم بن عقيل استولى على أَفئدة الناس, والنعمان لا يحرِّك ساكنًا .

أجتمع يزيد مع مستشاريه يعرض عليهم المعلومات , أخذ برأي سرجون : عزل النعمان بن بشير وتولية عبيد الله بن زياد والي البصرة على ولاية الكوفة .

كتب له : أما بعد: فإنه كتب إليَّ شيعتي من أهل الكوفة يُخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لِشَقِّ عصا المسلمين، فَسِرْ حين تقرأُ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة، فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه، أو تقتله، أو تنفيه، والسلام.

أخذ الخليفة برأي صاحبه الذي على غير ملة الإسلام, فعلها ابن مرجانه ؟

****

*(رسالة إلى البصرة)

يفكر الحسين من أعماق روحه وضميره , ليلقي الحجج على أهل البصرة الذين لم يكاتبوه , أرسل الحسين مولاه سليمان إلى البصرة لنفر من زعمائها , مالك والأحنف ومسعود وقيس والمنذر : سلام الله عليكم

أما بعد , فإنِّي أدعوكم إلى إحياء معالم الحق وإماتة البدعة والباطل , فإنْ تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد .

قبل وصول المبعوث سارع المنذر بن جارود إلى ابن زياد وافشى سرَّه وفحوى رسالته , القي القبض عليه , قتله وصلبه .

وأجاب الإمام الأحنف بن قيس برسالة : فاصبر إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ ولايَسْتَخِفَّنَّك الذين لا يوقنون.

واستجاب يزيد بن مسعود النهشلي إلى تلبية نداء الحقّ , فكتب : أمّا بعد ، فقد وصل إليَّ كتابك وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظّي من طاعتك والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنّ الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير ودليل على سبيل نجاة، و أنتم حجّة الله على خلقه ووديعتُه في أرضه، تفرّعتم من زيتونة أحمدية، هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر، فقد ذلّلت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظمأى لورود الماء يوم خمسها، وقد ذلّلت لك رقاب بني سعد، و غسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهلّ برقُها فلمع.

تهيأ الطاغية للسفر لتولي منصبه الجديد ,فاعتلى منبر البصرة , خاطبهم خطاب الطاغية الجبان , اعذر وأنذر بالقتل لمن يخالفه , وترك أخيه عثمان بن زياد واليا عليهم .

****

* (دخول الطاغية الكوفة)

اصطحب ابن زياد معه بعض زعماء البصرة بينهم شريك بن الأعور ,دخل الكوفة متنكرا ومخفيًا سحنته ووجهه وراء لثام وقناع !

توهم أهل الكوفة بموكب ابن زياد فظنوا أنه موكب الحسين بن علي , فتحوا الطريق وهللوا مرحبين هاتفين : مرحبا يا ابن رسول الله , قدمت خير مقدم.

أمتلئ قلب ابن زياد مرارة وحقدا , وأطمأن لم يعرقلوه ويصلوا إليه بسوء .

وصل إلى دار الإمارة واحتمى بشرطتها وحراسها , باشر بنصب شباكه لرسول الحسين وابن عمه .

بلغ خبر استلام ابن مرجانه مسامع مسلم بن عقيل , فراح يغير مقره بحيطه وحذر , وانتقل لدار هاني بن عروة .

دعا هاني صديقه شريك ليحل ضيفا عليه في داره , فالتقى مبعوث الحسين , بارك جهوده وجهاده وحثه على المثابرة .

خف ومرض شريك , علم ابن زياد , قررعيادته !

تحركت مشاعر شريك الإيمانية , بادر باقتراحه على مسلم أن يفاجئ ابن زياد ويضربه بسيفه ويريح البلاد والعباد منه .

داخل ابن زياد وجلس مع شريك جلسة طويلة , وغادر دون أن يناله سوء !

نهض شريك معاتبًا مسلمًا , سأله : لما لم تنجر وتتقرب لله بقتله ؟

ـ أجابه : يمنعني عنه : كراهة هاني أن يقتل بداره , وأن رسول الله نهانا عن الغيلة ,وقال : لايفتك مؤمن !!

أي نضال وأخلاق يقاتلون بها أهل البيت ؟

****

*(مطاردة)

جن جنون ابن زياد لإخفاقه بالقبض على مبعوث الحسين وفشل شرطته !

سهر ليلته يوحي إليه شيطانه مجموعة حيل خبيثة للإطاحة بخصمه , صرخ بالحاجب: نادِ لي على معقل التميمي , وقف بين يديه , سلمه صرة فيها مال , أمره أن يجرد نفسه شخصا غير شخصه , يجوب الكوفة زاعما ومتظاهرا بأنه أحد أنصار الحسين ويريد أن يأخذ مكانه بين الأنصار ويتبرع بما معه من المال لأشراء السلاح .

بعد عناء طويل أهتدى الجاسوس لضالته المنشودة , أستغل رجل صالح من أصحاب الحسين , أتقن دوره ليخدعهم جميعا , أصبح أثيرا عندهم , كان يزور مسلما في النهار كل يوم ,ويقضي ليله مع ابن زياد ينقل له الأخبار والأسرار .

****

*(الطاغية يمسك قنصه)

ارسل شرطته لبيت هاني بن عروة , انتصب أمامه كالجبل الشامخ , فجأة : أيه يا هاني ماهذه الامور التي تحاك في دارك ضد أمير المؤمنين , جئت بمسلم وأدخلته دارك وجمعت له الرجال والسلاح , وظننت يخفى ذلك علي.

ـ أنكر , أستعد لمجابته, محاولا كسب الوقت ليفسح المجال لضيفه بالخروج من داره .

أردف ابن زياد .. أين خبئت مسلما !

ـ عليك أن تسأل قائد شرطتك عديم النخوة هذا , أنتهك حرمات النساء في البيوت ولم يجد مسلما ,ولو كان مسلم بهذا المكان لوقع بيد جلاوزتكم .

أذهله ابن زياد بمفاجأته الثانية , دعا جاسوسه , أنتصب أمام هاني كليل الشتاء طويلا باردا , سأله وكرر سؤاله صارخا مرتين: أتعرف هذا ؟

تقرب معقل من هاني وتحدث بصوت مرتفع : هل تتذكر الخمس والثلاثة الاف دينار التي اعطيتها لمسلم , أتتذكرها .

- صرخ بوجوههم : إن مسلما في داري وضيفي ولن أسلمه أبدا .

خفض الطاغية صوته كلمه بهدوء : ياهاني كان أبي صديقا مقربا لك , لاتدعني أسحق حرمة صداقة والدي , سأعاملك بغاية القسوة .

- قل اين مسلم !
- كان عندي لبعض الأيام وقبل أن تطلق كلابك المسعورة على أهل بيتي خرج منه .

صرخ ابن زياد : وأين هو إلى أين ذهب ؟ أنت أَحد أنصاره المقربين ولابد أنك تعرف أين ذهب , أَلا تعرف ؟

لهج لسان هاني لالا أنا لا أعرف , ضربه الطاغية بقدمه اليمنى على عينه قائلا أَلا تعرف أيها الكاذب .

تألم هاني , نهض بسرعه فائقة يريد ضرب ابن زياد

سمع ابن زياد الضجيج حول دار الإمارة ,دخل الرعب قلبه , سأل حاجبه: أتسمع يا ابن حريث .

ـ نعم أيها الأمير .

أردف .. ما كل هذا الضجيج ؟

ـ لعلها قبيلة مدحج جاءت لخلاص هاني , لا أَعلم فديتك يا أَمير .

تقدم هاني خطوات رفع صوته : قبيلة مدحج , وإنه مسلم بن عقيل كان ولايزال في حمايتي . أمهلك فرصة يا ابن زياد تخرج من الكوفة وتترك نهائيا أمر مسلم وإلا أهدم الكوفة على رأسك يا ابن زياد .

قهقه ابن زياد بصوت عال , وسار بين حاشيه يقول : أتسمعون أيها المسلمون , هل ترون هذه الوقاحة ؟

هذا الرجل يتهجم علي ويهينني في عقر أمارتي , أقسم أن أهانتي لا يغسلها إلا الدم .

جرت بينهم مشادة كلامية ,جن جنون الطاغية , نادى جلاديه , أمرهم أن ينزلوا به أشد أنواع التعذيب دون القتل حتى لا يستريح في الموت !

همس في أذني معقل : أحضر شريح القاضي !

صعد سطح القصر ينظر إلى الجماهير المحتشدة , حذره قائد شرطته : هؤلاء مشاغلون ياأمير لاتظهر أَمامهم .

توقف , ردَّ عليه : الملاح الذي يغشى العواصف لايصل إلى مقصده .

طلَّ عليهم ابن زياد , رآه أحدهم رفع كفيه مناديا : توقفوا عن هتافكم يا أسود مدحج , يبدو أن ساكني هذه القصور قد سمعوا صيحاتكم , خاطبهم : أنتم أيها المغتصبون أطلقوا سراح هاني وإلا سندمر القصر على رؤوسكم .

تأمل ابن زياد هنيئة قائلا: أخوتي ياآل مدحج , هاني ليس أسيرا لكي نطلق سراحه , سأله أحدهم , ومن أنت.

رد عليه : أنا خادمكم ابن زياد . لقد سمعت أن آل مدحج شهروا سيوفهم وقصدوا دار الحكومة , فلا أصدق وجئت ارى بأم عيني , يا أحبتي هذا ظلم كبير منكم بحق وليكم .

قوم مدحج يعلمون مدى صداقة والدي زياد رحمة الله عليه بهاني . وكم كان عزيزا عليه وأنا لااريد أن أكون خلفا سيئا لوالدي لذلك أريد أن ارعى هذه الصداقة .

ولو كانت لي معه عداوة لما ذهبت لعيادته أن أهل الفتنة يعلمون مالدى قبيلة مدحج فيريدوا أن يلوثوا هاني في فتنتهم .

لهذا أتينا به لدار الحكومة كي لاتصل أيديهم إليه وبذلك فوتنا عليهم فرصة قتله ,هذا هو الآمر ببساطة .

رد متحدث القوم .. أنت تقول هذا لان بريق سيفنا خطف لونك , لكننا سمعنا أمرت بقتل هاني .

أجابهم : هاني مريض وإلا لكان جاء لشرطة القصر ليثبت لكم بنفسه ما أقول هو الصدق .

نطق كبير القوم : أن كنت تحب هاني كما تزعم لما هجمت بيته وهتكت حرمته .

أمتص غضبهم قائلا : معكم حق التفكر هكذا , فهذه قصة جاهل سقط في البئر لا يستطيع مئة عاقل إخراجه ,هذا خطأ بعض أفراد الشرطة : أرسلته يأتيني بالعمامة أتاني بالرأس ,لكن كونوا على ثقة سأعاقبهم عقابا شديدا .

صعق الكبير مسامع الطاغية بقوله : المدحجيون جميعا فداء لهاني ونحن نقسم بالله لو قطعت شعره من رأسه سيكون عقابك

عسيرا , التفت لقومه خاطبهم : ياآل مدحج لا أطمئنان لأَقوال هذا الرجل ,فما لم تشاهدوا هاني بعيونكم لن تصدقوا.

تعصب ابن زياد وأطبق أسنانه ثم نطق : حسنا , إذا لم تصدقوا ما أقول عليكم اختيار حكم محايد ليدخل القصر ويشاهد هاني , ويخرج ليبلغكم صدق ما أقول .

هل تقبلون شريحا القاضي ؟

رد كبيرهم : نعم نقبله , رجل متدين وهو صادق , نقبله حكما بيننا .

أقنعهم شريحا ببعض الآيات والحديث وظللهم بمكره , تقهقروا وتراجعوا وخذلوا زعيمهم .

تكالب على هاني المجرمون , يكسرون أنفه , يمزقون لحم وجهه ,يهشمون عظامه , وهو صابر محتسب .

****

*(محاولة أنفاذ أسير)

طار خبر مصرع هاني إلى مسلم , جمع رجاله وأنصاره , سار بهم إلى قصر الإمارة يهتفون: يا مَنصُور أَمت, ضربوا حصارا رهيبا حوله .

لكن رغم كثرة رجال مسلم بأضعاف حرس الطاغية لم يضرب ضربته , لم يستغل هيجان الناس وثورتهم التي تشتعل في نفوسهم انتقاما وغضبا لمقتل هاني بن عروة!

نجى ابن زياد مرة ثانية بسبب ما تحمل ثورة الحسين من أخلاق وفضائل .

أكتفى مسلم في يومه بما مرسوم له من قائد الثورة بالحصار الذي ضربه وأحكمه .

عد ابن زياد حيله مع أنصاره من بعض زعماء الكوفة داخل القصر لفك الحصار , أبلغهم الخروج وقت ساعة الغروب يخبرون الثائرين جيش الشام في طريقه إليهم وسيحيل أحياءها قتلى , ودورها ترابا .

خرج الزعماء وبث الرعب بين صفوفهم , نصحوهم بالانصراف على أمل معالجة الآمر فيما بعد .

انصرفوا بحجة حقن الدماء .

****

*(المبعوث شهيدا)

صلَّى مسلم جماعة ببعض من أَنصاره , ففروا واحدًا بعد الآخر , انتهت الصلاة , التفت يمينا وشمالا رأى نفسه وحيدًا طريدًا مُشرَّدًا، لا مأوى يأوي إليه، ولا قَلبٌ يعطف عليه!

قضى ليلته حزينًا تساوِرُه هُموم قدوم الحسين وأهل بيته ,يتعبَّد ما بين الصلاة وقراءة القرآن , أخذته غفوة فرأى في منامه عَمَّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أخبره بِسرعَةِ اللحَاق به!

يجوب مسلم أزقة الكوفة , رأى أمرأة تقف على بابها يبدو أنها تنتظر ولدها أو زوجها ,القى السلام عليها , حدثها : يا أمة الله أسقيني ماء ، فسقته وجلس .

خاطبته : يا عبد الله ، قم فاذهب إلى أهلك ؟

أجابها : يا أمة الله ما لي في هذا المصر منزل ، فهل لك في أجر ومعروف ، ولعلّي أكافئك بعد اليوم ؟

سأَلته : ومن أنت ؟

ـ أنا مسلم بن عقيل ، فأدخلته إلى دارها .

انفلق عمود الفجر وانفتل من صلاته ودعائه ونوافله تأهب لمجاهدة من مرق عن الدين وأعرض عن وصايا النبي في أهله وذويه , كلم طوعة : قد اديت ما عليك من البر والإحسان ، وأخذت نصيبك من شفاعة رسول الله.

صباحا زرع ابن زياد شرطته على طول الكوفة وعرضها وكمن لمسلم بعد أن تلقى معلومات من ابن طوعة بوجود مبعوث الحسين في دارهم , أمر الطاغية ابن الأشعث أن يذهب إليه في سبعين من قيس ليأتيه به.

قاومهم بسيفه وعزمه وهو يرتجز قائلا: أقسمت لا أقتل إلاّ حرّا إنّي رأيت الموت شيئاً نكرا

كلّ امرئ يوماً ملاق شرّا أخاف أن أكذب أو أغرا

أثخن بالجراحات , فألقوا عليه القبض ، حملوه أسيرًا إلى ابن زياد ,وقف أمامه صامتًا رافضًا إلقاء السلام عليه .

أطلق الطاغية عنان لسانه بالسب والشتم لعليٍّ وعقيلٍ والحسين .

سأله ابن زياد : أتراك ترجو الحياة والبقاء ؟

ـ أجابه : إذا كنت تريد قتلي , فدعني أوصي لقومي .

أمر ابن زياد : أصعدوا به فوق القصر وأضربوا عنقه ، ثمّ أتبعوه جسده ، أخذه بكر بن حمران الأحمري ليقتله ، ومسلم يكبّر الله ويستغفره ، ويصلّي على النبي وآله ويقول : اللهم أحكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا.

وأصدر أمرَه الثاني بقتل هاني معه , ورميهما من أعلى القصر , وسحبهما بحبلين في الأسواق.

****

*(نخلة)

في جوف الليل تسللت لذاكرته وصية النَّبيِّ كنسماتٍ رقيقة, حركت عينيه على غلام لونه يشبه جذع نخلة كان مولى سيدة من بني أسد ؟

- أَتبيعينَ هذا الغلام !
- نعم ياوصيَّ رسول الله .

اشتراه واعتقه , سأله : ما أسمك ؟

- سالم .
- أخبَرَني رسول الله أنّ أسمك الذي سمّاك به أبوك في العجم ميثم .
- صدق رسول الله وخليفته واللهِ إنّه لاَسمي.
- أرجِعْ إلى أسمك الذي سمّاك به رسول ودَعْ سالماً.

أصطحبه أمير المؤمنين معه واشترى له دارا قريبا من بيته في الكوفة , نام ليله فرآى مناديا يناديه : أَيّها النائم , فوالله لتُخَضَّبَنَّ لحيتكَ من رأسِكَ!

مضى يصلي صلاة الصبح , صلَّى خلف الإمام , قصَّ عليه رؤياه , أَنصت لصوت علي : صدقت , واللهِ لتُقطَعَنَّ يداك ورجلاك ولسانك والعينان .

اندهش ونطق : ومن يفعل ذلك يا أمير المؤمنين!

ـ ليأخذنَّكَ العُتلُ الزَّنيمُ ابن الأَمة الفاجرة.

مسك يد هاني , أمضي معي أريك النخلة التي تصلب على جذعها !

عشرين سنة يحيطها بالماء , يصلي عندها ركعتين ويخاطبها وهو يسقيها : أنبتك الله من أجلي وغذاني من أجلك .

****

*(حج التمار)

ستون للهجرة ماتت نخلته الباسقة وأصبحت جذعا يابسا , قطع غصنها فتحولت إلى جذع قصير ,و أخذ مسمارا وكتب عليه أسمه ,فسمره في الجذع.

سار إلى دكانه في سوق الكوفة, أَوصى أَولاده ببيع التمر وودعهم , انطلق الى بيت الله الحرام .

فقصد زوجة النبي أمّ سلمة , استأذن بالدخول عليها , كلَّمته من وراء ستار : أنت مِيثم ؟

ـ أنا ميثم.

أردفت

طالما سمعتُ رسولَ الله يذكرك في جوف الليل ويُوصي بك عليّاً.

ـ روحي فداء لرسول الله وعلي .

نطقت :وكثيراً ما رأيتُ الحسينَ بن علي يذكُرك.

ـ سألها بلهفة :فأين هو؟

خرج في غنم له آنفاً.

ـ أنا واللهِ أُكثِر ذِكرَه، فأقرئيه السلام فإنّي مبادر!

****

*(مصلوب)

توافد المؤمنون يباركون حجَّ ميثم التمَّار في السوق , أَخبروه قبل ثلاثة أيام عن قتل مسلم وهاني , وسعت حدقة عينيه , صمت , أشتكى أحدهم قسوة عامل الوالي ومطاردته لأصحاب علي .

نهض ومضى إلى دار الإمارة , حرك لسانه : أيها الوالي الباعة يعانون من ظلم عاملك في السوق .

أنحنى حرس ابن زياد هامسا في أذنه اليمنى : أتعرف هذا أيها الأمير, إنه الكذاب مولى الكذاب.

ـ ويحكم هذا الاعجمي ؟

فأردف الطاغية : أين ربك؟

أجابه بشجاعة : بالمرصاد للظلمة وأنت منهم.

صمت ابن زياد ونظر بوجوه الحاشية قائلا: هل كل الموالي لعلي من هذه القماشة, لما لم تنفضوا التراب والقمل عنه قبل أن تسمحوا له بدخول دار الأمارة؟

منذ متى لم يمس جلدك الماء أيها التمار ؟

ألم تغتسل بحياتك ؟

تعالت قهقهات جلاوزة الوالي .

ـ رد عارفا فقيها : أولا :عليكم أن تعلموا أيه الجهلة أن التراب هو المطهر بعد الماء .

ثانيا : أفضل أن يأكل القمل جسم النحيل هذا خير ما يأكله بين جدران القبر الدود والعقارب والافاعي .

ثالثا : من صفات أبناء الزنا والحرام أن يحقروا أعدائهم بهذه التهم والأكاذيب وها أنا بينكم لا أحمل قملا ولاترابا.

أشتاط ابن زياد غضبا كبركان يتطاير شراره , سارت به قدماه مسرعتين. ركل وجه ميثم فأسقطه على الأرض.

كلمه حاجبه : فديتك ياسيدي دع هذا العجوز الواقف على حافة القبر يبدو إنه ملأ بطنه خبزا فامتلأ به جلبابه , فالجدل مع هذا البائس لا يليق بمثلك سيدي .

صرخ سوف أقتله شر قتله , أمرهم ,خذوه وأخرجوا لسانه من حلقومه القذر ثم أَصلبوه على جذع نخلة ليبصق الناس عليه .

ـ غرد لسان ميثم كبلبل يشدو : لاحول ولاقوة إلا بالله , قسمًا بذات الله إنَّني كنت على علم بما ستفعله بي, لقد سمعت كل شيء من سيدي علي .

استغرب الوالي مرددًا :علي , ماذا سمعت من علي ياحقير؟

ـ حدثني سيدي علي عن كيفية موتي , قال لي: ياميثم أنت سوف تقتل حتمًا على يد ابن زانية , يقطع لسانك ويعلقك على جذع النخلة التي كنت تقتات منها .

كشر عن أنيابه ابن زياد قائلا : علي كذاب, سأثبت لك إنَّه كاذب كبير, سأجعل قتلك مُغَايرًا لما تنبأ به علي!

نادى يا ابن حريث خذوه لغياهب سجن مظلم لتأكل لحمه الحشرات ويموت منسيا .

أطرق مسامعه ميثم : أنت على يقين من صدق علي عليك, يافاسق اذهب وافعل ما يحلو لك, أقسمُ بالله العظيم ما سمعت من عليٍّ شيئا غير الحقيقة والحجج الناصحة .

تأَهوَّه ابنُ زياد مستهزئا :آهٍ آهٍ . إستدار لخادمه يقول له: يابن حريث الطمْهُ على فمِهِ, وأبعده عن ناظري .

أصابه ألم في صدره ,سار لغرفته يتألم , يتمايل بجسمه, يردد : آهٍ آهٍ .

ضربه جلاوزته عدة ركلات على ظهره ووجهه وسحبوه بقوة نحو سجنه المظلم .

تألم واخترق صوته مسامع المختار فحدثه :وأخيرا قمت بعمل مثلي دفنك حيًّا .

ـ أجابه : أين القبر من هذا النفق المظلم يا أبا أسحاق , أعوذ بالله من ضغطة القبر ومنحدره أن الوصول للحبيب مليء بالمخاطر أدعو الله تعالى كي لانضيع ونحن نسعى للخلاص من متاهات هذه الانفاق المتداخلة .

أردف المختار : سوف لن نضيع عندما ننظر إلى السماء نرى النجم الذي يهتدى به .

ـ أجل وإن كانت السماء غائمة أو صادفتنا بالطريق بئر فهناك من كان رأسه في السماء فوجد نفسه بالبئر ماذا نصنع حينئذ ؟

لاتتشائم يامیثم ,طريقنا طريق صعب ووعر, لكننا ليس في الجاهلية , حبّ الإمام علي سبيل رشادنا .

ـ سأله : هل أنا مجنون يامختار؟

همهم قائلا معاذ الله , ان كنت مجنونا فمن العاقل أذن ؟

أردف بسؤال أخر : أنت مغرم يامختار ؟

ـ أَلا أَبدو لك كذلك؟ .

فأجابه :لا يبدو عليك ذلك وجرح عينك هذا يثير الشك ,أحذر الشيطان يامختار سوف تُكَلَفُّ بمهمة خطيرة, ستقتل ابن مرجانه وتدوس على وجهه بقدمك, وعندها إياك والغفلة من البئر الذي تحت قدمك , لربما يرسلك لقعر جهنم .

حرس السجن أبلغوا قائد الشرطة : ميثم لا يكفُّ عن السبِّ وتحريض السجناء .

خاطبهم :بأمر الأمير اقطعوا لسانه فورا , اشنقوه أمام الناس وعلى جذع النخلة .

قيدوه , صلبوه على جذع النخلة , لجموه , اليوم الثالث , طعن بالحراب , كبر , أخر النهار سالت الدماء من فمه وأنفه , التحقت روحه بالسماء.

الفصل الرابع
(رحلة من المدينة إلى الكوفة)

*(مسير الإمام إلى الكوفة)

يعلمُ سفالةَ خصومهِ , إنَّهم لا يتورعون عن هدم المسجد والكعبة في الحرب , لا يريد استباحت البلد الحرام بسببه .

قطع طريقه إلى الكوفة , لا يبالي بنصح ذويه والصحابة من الخروج , وقف عبد الله بن العباس يحاوره , أَجابه الحسين : يابنَ عَم لأَعلم أَنَّكَ ناصحٌ مشفقٌ ولكنَّني عزمتُ على المسير .

علم عبد الله بن عمر بخروجه , لحقه, قطع الطريق وراءه وثبا بثلاثة أيام , سأله : أَين تريد يابنَ بنت رسول الله ؟

يجيبه :الكوفة, هذه كتبُ أَهلها وبيعتهم, وإنِّي ذاهب إليهم .

أَيعلم بقتل ابن عمِّه مسلم , وتخاذل مَنْ بايعه ؟

حدثه ابن عمر بحديث , دون جدوى لا ينقص عزمه , ضمَّه إلى صدره , يقبله ويبكي قائلا: أستودعك الله من قتيل !

فشلت جميع محاولات المحبين ولم تثنه . كانَ همُّه تلبية دعوة النبي في رؤياه !

هل تستحق مسيرته وتضحيته وما ينتظره وآله وصحبه من مصير مجهول المغامرة ؟

أَخروجٌ من أجل خلافة أَم عداوةٌ شخصيةٌ مع يزيد؟

سار الحسين متبنيا التكفير عن خطيئة الصمت , ليظهر حقُّ الإسلام ونفسه وينقذ المسلمين من الضلال والإفك .

مضى ريحانة الرسول , فلقيه الفرزدق قادمًا من الكوفة , سأله : كيف تركت الناس من وراءك ؟

ـ تركتهم قلوبهم معك , وسيوفهم مع بني أميَّة.

نطق الإمام , تلا الآية : "للهِ الأَمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعدُ" .

بعد أيام من المسير لقيه عبد الله بن مطيع قادمًا من العراق , تعلَّق بثيابه صارخًا : أناشدك الله أن لا تذهب للكوفة , فوالله لئن أَتيتها لتقتلن .

خرق أذنيه بتلاوة الآية : "قل لن يصيبنا إلَّا ما كتبَ الله لنا" .

أستأنف سيره , مرَّت على رحلته أَيام , لقيه رجلٌ من بني أَسد قادم من الكوفة , رنَّ مسامعه الإمام بسؤال : ما هي أخباركم ؟

ـ سالت دموع الرجل ونطقت شفتيه بصوت حزين : قُتِلَ مسلمٌ وهاني وميثم .

انهارت قوى الحسين من نبأ هدَّ الجبال , أرسل بصره في الأفق البعيد , لهج لسانه : إنا لله وإنا إليه راجعون , عند الله نحتسبُ أنفسنا ولاخيرَ في العيش بعد هؤلاء .

هل مقتل مبعوثه وأنصاره أثنى عزيمته , أهل تصميمه الوثيق يقوده , وقدره العظيم يناديه ؟

سار يسحق بقدميه الرمال ويقطع الصحارى الملتظية , دعته المشقة على العيال للاستراحة , حطَّ رحاله وضرب خيامه في بطن الرملة .

جلس وكتب بأنامله كتابا إلى أهل الكوفة : أنا في الطريق إليكم .

نادى قيس بن مسهر الصيداوي , سيَّرهُ برسالته .

*(لقاء في زرود)

شدَّ الرحال يستأنف سيره , توقف عند مكان زرود , أبصر فسطاطًا مضروبا , علم إنه لزهير بن القين , أرسل بطلبه القني أكلّمك , تثاقل بداية الأَمر , عطفته زوجته نحو المجد , صعقت أسماعه كالبرق قائلة: سبحانَ الله! يبعث إليك ابنُ رسول الله فلا تجيبه؟!

مشى للقائه ظهرا , التقاه , حدثه حديثا لا أعلمه , قلب الحسين كيانه رأساً على عقب, تهلل وجهه , امتلأ غبطةً وبشرا .

عاد إلى فسطاطه , نزل من جواده , خاطب بني عمومته مَن أحبّ منكم الشهادة فليقم, إنا غزونا البحر، ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان المحمدي: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم. فقال: إذا أدركتم شباب آل محمد، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم ممّا أصبتم اليوم من الغنائم.

دخل خيمته حرك شفتيه في أذن زوجته : وقد عزمت على صحبة الحسين لأفديه بنفسي وأقيه بروحي, فإنّي قد وطّنت نفسي على الموت معه .

أجابته بإيمان راسخ : كان الله عوناً ومعيناً، خار الله لك، أسالك أن تذكرني في القيامة عند جدِّك الحسين.

أردف ..أما أَنتِ فالحقي بأَهلك ,فإنِّي لا أحب أن يصيبك بسببي سوء .

نقل فسطاطه لجوار فسطاط الحسين ,بماذا حدثه الحسين ؟

كبير قومه وثري هل وعده بمنصب؟

أظن خيره بين الاسراع أو الإبطاء إلى الجنة .

عند التقرب من مشارف كربلاء همس الإمام في أذنيه : يا زهير، اعلم هاهنا مشهدي، ويحمل زحر بن قيس رأسي ، فيدخل به على يزيد يرجو نواله، فلا يُعطيه شيئاً.

****

*(رسول إلى الكوفة)

امتطى قيس راحلته يجوب الصحارى حتى بلغ القادسية , تفاجأ بقوات ابن زياد , اعتقلوه وكبلوه بالقيود ثمَّ اصطحبوه معهم إلى الكوفة .

وقف بين يدي ابن زياد , أمره بالصعود أعلى القصر ويظهر من الشرفة على الناس ويلعن الحسين ويعلن :أنه كذاب وابن كذاب .

تظاهر قيس بالطاعة , صعد مع الحرس , تبسم للجموع والحشود , صاح : إنَّ الحسين بن علي خير خلق الله , فاجيبوه وانصروه , وإنَّ الكذاب ابن الكذاب هو عبيد بن زياد , فالعنوه والعنوا أباه .

هاج الطاغية كالكلب المسعور , لعن ورجم شياطينه لتركه يمهلونه حيّا, صرخ : أَلقوه حيًّا من سور القصر , سقط كالشهاب من السماء , تدكدكت عظامه لترتفع روحه الطاهرة إلى بارئها .

****

*(حصار الطاغية)

كتب يزيد إلى واليه على الكوفة : إنّه قد بلغني أَنّ الحسين بن عليّ قد توجّه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظنّ، وخذ على التهمة!

خاف ابن زياد من انضمام بعض مؤيديه إلى الموكب الحسيني , اعتقل وقتل كل محبٍّ ونصير للحسين , فراح يضرب حصارا محكما حول الكوفة .

اصدر أوامره لطلائعه وسراياه بمنع الدخول والخروج للكوفة وأطلق على مشارف حدودها مجموعة تتربص بقافلة الحسين , يحتجزونها حيث هي , ويبلغون ابن زياد عنها .

أَيُمسِكُ مقاليدَ الدنيا السَّفيه, ويقررُ مصيرَ الكرام ؟

****

*(محطُّ الرِّحال)

بالقربِ من القادسية نحو ثلاثة أَميال بمنطقة عُذَيبِ الهَجَانات, التقى ركبُ الحسينِ بجندٍ تعداده أَلف فارس بإمرة الحرِّ بن يزيد الرياحي .

لمحهم الإمامُ قادمين نحوه يتصببون عرقًا من شدِّة الحَرِّ , قد تيبست شفاههم من الظمأ , أمر فتيانه أن يسقوهم فشربوا حتى رووا , جلسوا في ظلال الخيول , فأَذَّنَ الحَجَّاجُ بن مسروق الجعفي لصلاة الظهر , التفت الإمامُ إلى قائدهم سأله : أَتصلِّي بأصحابك وأُصلِّي بأصحابي ؟

أجابه الحُرُّ : بل نصلي جميعا بصلاتك .

تحاورا بعد الصلاة ,نطق الحسين : حَمَدَ الله وأثنى عليه، أَمّا بعد، أَيّها النّاس، فإنّكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أَهل البيت أَولى بولاية هذا الأَمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أَنتم كرهتمونا،

وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم، وقدمت به عليّ رسلكم، انصرفت عنكم.

تكلم الحُرُّ قائلا: إنّا ـ والله ـ ما ندري ما هذه الكتب الّتي تذكر! نادى الإمام يا عقبة بن سمعان، أخرج الخُرجينِ اللذينِ فيهما كتبهم إليّ. فأخرج خُرجينِ مَملوئينِ صحفاً، فنشرها بين أَيديهم.

تلعثم الحُرُّ وحرَّك لسانه : فإنّا لسنا من هؤلاء الّذين كتبوا إليك، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك ألّا نفارقك حتّى نقدمك على عبيد الله بن زياد.

خاطبه الإمام : الموتُ أَدنى إليك مما تريد , فأمر بعد العصر أَصحابه بحمل أَمتعتهم وركوب رواحلهم, وتقدمهم في المسير مُغَيِّرا اتجاهه عن الكوفة .

نادى الحر فرسانه لقطع الطريق عليهم , صاح به الحسين : ثكلتك أمّك! ما تريد؟

ـ أما والله، لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال الّتي أنت عليها ما تركت ذكر أُمّه بالثكل أَن أَقوله كائناً من كان، ولكن ـ والله ـ ما لي إلى ذكر أمّك من سبيل إلّا بأَحسن ما يقدر عليه.

سأله الإمام : فما تريد؟

ـ أن تصحبني إلى ابن زياد .

زجره الحسين قائلا : إذن والله لا أتبعك .

ـ إجابه الحُرُّ : إذن والله لا أدعك .

صاح به الحسين : إنَّها الحرب إذن !!

ـ لانَتْ عريكةُ الحُرِّ , تكلَّم : إنّي لم أؤمر بقتالك، وإنَّما أُمرت أَلّا أفارقك حتّى أقدمك الكوفة، فإذا أَبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة، ولا تردّك إلى المدينة، لتكون بيني وبينك نصفاً حتّى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أَردت أَن تكتبَ إليه، أَو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت، فلعلّ الله إلى ذاك أن يأتي بأَمر يرزقني فيه العافية من أَن ابتلى بشيء من أَمرك.

سار الحسين في أصحابه والحُرُّ يسايره , تراءى لهم راكب يغذ السير ويطوي الرمال , لبثوا بمكانهم ينتظرون , كان رسول ابن زياد يحمل كتاباً :أَمَّا بَعْدُ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي، ويقدم عَلَيْك رسولي، فلا تنزله إلّا بالعراء فِي غير حصن وعلى غير ماء، وَقَدْ أمرت رسولي أَن يلزمك وَلا يفارقك حَتَّى يأتيني بإنفاذك أَمري، والسلام.

أَراد الحسين استئناف سيره متجها صوب مسيل ماء , منعه الحُرُّ المُحَاصَرُ من رسول ابن زياد بنظراته كالرقيب , غَيَّرَ الحسين اتجاهه وسار بركبه والفرسان من جانبيه .

خشي الحُرُّ أَن تفلت الفرصة منه , فأَصر على نزول الركب حيث انتهت خطواته .

تقرب زهير بن القين من أذني الإمام هامساً : يا بنَ رسولِ الله، إنّ قتال هؤلاء أَهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به.

ردَّ عليه الحسين بصوت خافت : ما كنت لأبدأهم بالقتال.

تقدم زهير بمقترح آخر : سِرْ بنا إلى هذه القرية حتى تنزلها فإنَّها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم أَهون علينا من قتال من يجيء من بعدهم.

سأله : وأيّة قريةٍ هي؟

ـ هي العقر.

دعا الإمام : اللّهمّ، إنّي أعوذ بك من العقر، نزل وأَلقى نظرة على الفضاء الموحش حوله , فسأل : ما أسم هذا المكان ؟

ـ أسمه كربلاء .

لا أعلم هل أختفى تفاؤل الحسين وراء احساس لا يوصف ؟

صورة في ذاكرته, أَهي نبوءة الأَمس , وواقع اليوم , ومصير الغد!

يستعيد خواطر يتذكر مشهدَ يوم كان مع أَبيه أَمير المؤمنين في طريقه إلى صفين فوقف على نفس المكان قائلاً : هنا مَحَطُّ رحالهم , ومهراق دمائهم .

أَهي الحكمة الإلهية تقود حياته بين مطالعها ومغاربها مذعنه لقدرها الحكيم بتقدير العليم ؟

****

*(توبة)

كان غارقاً في الجاه والسمعة والسلطان، ورئاسة العشيرة والمركز الوظيفي في جيش الكوفة, تنحَّى وسأل نفسه : ما بالك ياحُرُّ, تقاتل ابن فاطمة قرَّة عين الرسول وأنت ترجو شفاعة جدِّه المصطفى , اُفٍّ لكَ ياحُرُّ , اُفٍّ لكَ ياحُرُّ!

صاح المهاجر بن أوس: ما تُريد يا بن يزيد؟ أَتريد أَن تحمل؟

ـ صمت .

أَردف .. يا بن يزيد، والله، إنَّ أَمرك لمريبٌ، والله، ما رأيت منك في موقف قطّ مثل شيء أَراه الآن، ولو قيل لي: مَن أَشجع أَهل الكوفة رجلاً ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك.

ـ إنِّي ـ والله ـ أُخيّر نفسي بين الجنَّة والنار ـ ووالله ـ لا أَختار على الجنَّة شيئاً ولو قُطّعت وحُرقت.

امتطى جواده ولحق بالحسين , نزل سار خطوات ,سلم عليه .

رد الإمام السلام عليه .

نطق بصوت حزين : جعلني الله فداك يا بن رسول الله، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلّا هو ما ظننت أنَّ القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المنزلة، فقلت في نفسي: لا أُبالي أن أُطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أنّي خرجت من طاعتهم، وأمّا هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم ـ ووالله ـ لو ظننت أنّهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك، وإنّي قد جئتك تائباً ممَّا كان منِّي إلى ربي, ومواسياً لك بنفسي حتى أَموت بين يديك، أَفترى ذلك لي توبة؟

ـ نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك، ما أسمك؟

أنا الحُرُّ بنُ يزيد.

ـ أنت الحرّ كما سمّتك أُمّك، أنت الحرّ إن شاء الله في الدنيا والآخرة، انزل.

أنا لك فارساً خيراً منِّي راجلاً؛ أُقاتلهم على فرس ساعة وإلى النزول ما يصير آخر أمري.

خيَّره الحسين قائلاً: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك.

ألم يكن عالماً بنية القوم على قتال الإمام قبل توبته ؟

****

*(أول قائد للطاغية)

فرصة عمره إذا استطاع أَن يجهز على الإمام , يقدم رأسه هدية ليزيد .

ابن زياد يعد قادته في الكوفة لضرب الحسين وأَصحابه بقلب وراءه روحٌ خبيثة !

يفكر باختيار قواد المعركة ممن يغري بهم سواد الناس , وكعادة الطغاة , كل من يتخلف عن الانضمام لجيشه يضرب عنقه ليسقط رأسه ممتزجاً بالأرض أمام قصره .

نهض من عرش الإمارة , ذكره مستشاره شمر بن ذي الجوشن بجيش قوامه أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد لمجابهة الديلم في همدان , دعا من عيَّنه قائداً للري , خاطبه : ياعمر أخرج بجيشك لكربلاء .

مسك رشده بخاطرة من أَقوال النبي عنه : يكون مع قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأَرض البقرة بلسانها .

عادت ذاكرته إلى حديث علي بن أَبي طالب عندما استهان بالحق وكان طائشا : ويحك ياابن سعد , كيف بك إذا أقمت مقاما تُخَيَّرُ فيه بين الجنَّة والنار فتختار النار؟!

قدم اعتذاره .

وما هي إلَّا هنيئة حتى أَطرق الطاغية سمع ابن سعدٍ بتهديد عزله وبوعد تمليكه الري .

غاب رشده , خانته الإرادة , تغلب عليه الحقد على أَبيه الذي عهد لورثته لا يعطوه شيئاً من الميراث , خنع للطاغية , سار بجيشه لكربلاء وهو يردد :

دعاني عبيد الله بن زياد دون قومه ... إلى خطة خرجت فيها لحيني
فوالله ما أدري وإني لحائر ... أُفكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الري والري منيتي ... أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار ليس دونها ... حجاب وملك الري قرة عيني

****

*(الثاني من محرم ستون للهجرة)

نزل عمر بن سعد بجيشه كربلاء , عسكر على مقربة من معسكر الحسين .

دق جرس شريط الذكريات عند لقائه بالحسين في عهد جده بالمدينة قائلا له : أَنَّ قوما من السفهاء يزعمون أَنِّي أَقتلك .

أَجابه الإمامُ : ليسوا سفهاء !

تلعثم , نادى أَحد رجاله عزرة بن قيس , أَمره بالذهاب إلى الإمام ويسأله عما جاء به ؟!

امتنع عزرة معتذرا لقائده بحجَّة إنَّه ممن كتب للحسين بالقدوم للكوفة .

أَلا يعلم سبب مجيء الحسين ؟

ندب قرة بن قيس الحنظلي لسؤال الإمام , مضى نحوه وسلم عليه , طرح ما جاء به .

أجابه سبط النبي : ياهذا ,اعلم صاحبك عنِّي, إنَّي لم أَرد إلى هاهنا حتى كتب إليَّ أَهلُ مصركم أَن يبايعونني , ولايخذلوني , وينصروني , فإن كرهوني أَنصرفُ عنهم من حيث جئت .

الإجابة أثلجت صدر ابن سعد , بشر ببادرة لحل سلمي تجنبه معركة تطوق عنقه بأوزاره الثقال .

سارع عمر لمقابلة الحسين والتأكد من إجابته , عرض نفس السؤال ما جاء بك ؟

ـ أَهل الكوفة .

أَما عرفت ما فعلوا معكم ؟

ـ من خادعنا في الله أتخادعنا له .

قد وقعت الآن فماترى ؟

ـ دعوني لأَذهَبَ في هذه الأَرض العريضة حتى ننظر ما يصير أَمر الناس .

كتب ابنُ سعد للطاغية في الكوفة , فأجابه على الفور : قد بلغني كتابك ,فأعرض على الحسين البيعة ليزيد ,فاذا بايع ومن معه فأخبرني وسيأتيك رأيي!

عرض عمر كتاب الطاغية على الإمام , فرد عليه : لا أجيب ابن زياد إلى ذلك ابدا , وإن يكن الموت فمرحبا به

*(افشال محاولة السلام)

قرأ ابنُ زياد كتابَ ابنِ سعد على من تخفَّى بقناع الخوارج ليعمل لنفسه الخبيثة , هل تسلل بمبادئهم المنكرة وأغراض القوى العامل لحسابها ؟

طفق الطاغية يقول بعد أنهى قراءة الرسالة : هذا كتابُ رجلٍ ناصحٍ لأَميره , مشفقٌ على قومه .

هاجت أَفكار الشمر تثير انتقاصه بوضاعة نسبه وحقده على ذوي الأَنساب العريقة , يحسد عمر بن سعد على إمرته للجيش , ضاق ذرعاَ , لمَّحَ لابن مرجانه بقذارة نفسه وخبث الطويَّة قائلا: أَتقبل هذا منه بعد أَن نزل بأَرضك وإلى جنبك !

والله لئن رحل من بلادك , ولم يقع يده في يدك , ليكونن أَولى بالقوة والعزة , ولتكونن أَولى بالضعف والوهن .

رأى ابن مرجانه في كلمات الشِّمر الإخلاص والنصيحة , استغل ابنُ ذي الجوشن سيطرته على الموقف وأفسد المحاولة ,

اندفعَ يوهِنُ الطاغية للتخريب على مكانة ابن سعد عنده لإقصائه من منصبه ويحلّ محله , أَوشى هامسا بأُذني ابن زياد : والله , لقد بلغني أَنَّ حسيناً وعُمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل .

اقترح على الطاغية أَن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه , ويبقى هناك له عينا ورقيبا , ومقاتلا أَيضا .

اشترك مع ابن زياد بصياغة الكتاب : من عبيد الله بن زياد أَمير الكوفة والبصرة إلى عمر بن سعد ..

فإنِّي لم أَبعثك إلى الحسين لتكفَّ عنه , ولا تكون له عندي شفيعا .

أدع الحسين إلى ما أمرتك , فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين , فأبعث بهم إلي , وإنْ أَبَوا , فازحف عليهم حتى تقاتلهم وتمثل بهم .

وبعد أَن يقتل الحسين أَوطئ الخيلَ صدره وظهره , فإن مضيت لأَمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع , وإن أَبيتَ فاعتزل جندنا , وخلِّ بين شمر بن ذي الجوش والعسكر والسلام .

قرأَ كتاب أَميره , أَدرك كيد شمر , خاطبه : لقد أَفسدت علينا أَمراً كنا نرجو صلاحه , والله لن يستسلم الحسين أَبدا.

فأجابه : أمضي لأَمر أَميرك وقاتل , أَو فَخَلِّ بيني وبين الجند .

أَغلب ابن سعد على دينه , هل استسلم لأطماعه وهواه؟
نطق ابن سعد : لا والله ولا كرامة , أَنا أَتولى ذلك .

****

*(منع الماء)

ظنَّ ابنُ زياد أَنَّ الحسين سيبرح به العطش , فأرسل لقائده كتابا : امنع الحسين وأَصحابه الماء , وحُلْ بينهم وبينه حتى لايذوقوا منه حسوة , كما فعلوا بالتقي عثمان بن عفان !

هذه وقاحة طغاة ! أَين كان ابن زياد يوم مُنعَ عثمان عن الماء؟

وأَين كان علي بن أبي طالب والسبطين الحسن والحسين ؟

استغرب ذلك , الإمام علي لم يمنع الماء في صفين , والحسين يسقي جيش الطاغية بقيادة الحُرِّ .

أَلم يحمل أَمير المؤمنين قربة الماء على كاهله مقتحماً صفوف الثوار , متحديا حصارهم حتى سقطت عمامته من رأسه فأَنفذ الماء إلى الخليفة الظمآن !؟

هل تناسى الطاغية أَمر علي بن أَبي طالب لولديه الحسن والحسين بحراسة عثمان يذودان عنه عوادي الثوار حتى جُرِحَا وسالَ دمهما ؟

أرسل ابن سعد جنداً يبلغ تعدادهم خمسمائة فارس بقيادة عمرو بن الحجاج , احتلوا جميع الشرائع والأَنهر المتفرعة من الفرات ,

أَوصدوا الحسين ومعسكره يحولون بينه وبين الماء بصغار ولؤم مع تفوقهم العددي الساحق , ماذا يريدون وراء منع الماء , هل من في الخيام , سيدات , أطفال , مرضى ؟

حاصروا الطريق إلى الشريعة , جفت القرب التي ملأها أخوه العباس عنوه ,الاطفال والنسوة مشهدهم لا يطاق يترنحون تحت وطأة الظمأ , ما عسى الإمام صانع لهم ؟

*(ظمأ)

وسط الصحراء اللاهبة تتلظى الأطفال من العطش , ينظرون إلى الفرات يفيض بمائه , ذبلت شفاههم , جف لبن المراضع , يصرخون من أَلم الظمأ القاتل .

جيش اللئام يتفاخرون باستيلائهم على نهر الفرات وحرمان من في كنف الحسين من نساء أَهل البيت وأَحفاد النَّبي , انبرى المهاجر بن أَوس يسمع الإمام رافعاً صوته : ياحسين إلا ترى إلى الماء يلوح كأَنَّه بطون الحيَّات , والله لاتذوقه أو تموتّ!

أَيظن هذا الملعون بكلامه يعيد الإمام خواطره من جديد حول موقفه ؟

ـ ردَّ الحسينُ : إنِّي لأَرجو أَن يوردنيه الله ويحلئكم منه .

هتف عِرقُ الخِسَّة ممن كاتَبَ الحسين بالقدوم فخان عمر بن الحجاج وأَقبل بفرسه صوب معسكر الإمام ,رفع صوته : ياحسين ,

إنَّ هذا الفرات , تلغُ فيه الكلاب , وتشرب فيه الحمير والخنازير , والله لاتذوق منه جرعة حتى تذوق الحميم في نار جهنم !

وأشتد عبد الله بن أَبي الحصين كالكلب ينبح منادياً : ياحسين ,أَلا تنظر إلى الماء كأنَّه كبد السَّماء , والله لاتذوق منه قطرةً حتى تموتَ عطشاً !

رفعَ الإمامُ كَفَّيه داعيا عليه : اللّهم أقتله عطشاً , ولاتغفر له أَبداً.

أنكر أصحاب الحسين نافع بن هلال وبُرَيرُ بن خُضَير والحُرُّ بن يزيد على ابن سعد منعه الماء عن ريحانة الرسول وأطفاله الموشكين على الهلاك .

صمتُ ابنِ سعدٍ المُطبقُ تفشي مَلامحُهُ سعادتَهُ بملك الرَّي , فوقف الحُرُّ مخاطباً جيش الخسة قائلا:

ياأَهل الكوفة, لأمِّكمُ الهَبَل والعِبر! إذ دَعَوتُموه، حتّى إذا أتاكم أسلَمتمُوه، وزعمتم أَنّكم قاتِلو أَنفسِكُم دونه، ثمّ عَدَوتُم عليه لتقتلوه! أمسكتُم بنفسه، وأخَذتم بكَظْمه، واحَطتُم به من كلّ جانب، فمنعتموه التوجّه في بلاد الله العريضة حتّى يأمنَ ويأمَنَ أَهلُ بيته، وأَصبح في أيديكم كالأسير.. لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضُرّاً، وحَلأتُموه ونساءه وصِبيتَه وأصحابَه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهوديّ والمجوسيّ والنصرانيّ، وتمرغ فيه خنازير السَّواد

وكلابُه، وها هم قد صَرَعهم العطش، بئسما خَلَفْتم محمّداً في ذريّته، لا سَقاكمُ الله يوم الظمأ .

****

*(عين ماء وقتال)

نهض الإمامُ حاملًا فأساً , إتَّجه خلف خيمة النساء , حفرَ فنبعتْ عينُ ماءٍ عذبٍ , شربوا منها , فغارت .

عيون ابنُ زياد تراقب ما صنع الحسين , اشتاط غضبا , ارسل رسالة لعمر بن سعد : بلغني أَنَّ الحسين يحفر الآبار , ويصيب الماء في فيشرب هو وأصحابه , فأنظر إذا ورد عليك كتابي فأمنعهم من حفر الآبار ما استطعت, وضيق عليهم, ولاتدعهم أن يذوقوا من الماء قطره.

فرض عمر بن سعد الرقابة الشديدة وأَحاط نهر الفرات بالحرس والجنود .

عادت لوعة الأطفال وهم يستغيثون من الظمأ, ندب الحسين أَخاه وابن والده أَبا الفضل العباس , انبرى قمرُ العشيرةِ وبصحبته ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً , حملوا عشرين قربة , اقتحموا نهر الفرات ,تقدم نافع بن هلال , استقبله عمرو بن الحجاج مسؤول الحراسات ,سأله : ما جاء بك؟

ـ جئنا لنشربَ من هذا الماء الذي حَلأتُمونا عنه .

أجابه : اشرب هنيئا .

ـ أَفَأَشربُ والحسين عطشان ومن ترى من أَصحابه؟

صرخ : لا سبيل إلى سقي هؤلاء ,إنما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء.

اقتحموا المكان ملآوا قربهم , ثار عليهم عمرو مع مفرزة من جنوده , التحم معهم العباس ونافع بمعركة دون خسائر , فعادو بقربهم مملوءة بالماء .

أروى السَّقَّاءُ أَطفالَ الحسين والنساءَ وأنقذهم من العطش .

****

*(اجتماع)

أَحاطَ الهولُ بالحسين وهو صامدٌ , يرفضُ الإذعانَ لعصابة البغي والاثم في عزة المتقين .

أَرسل لعمر بن سعد إنِّي أريد أَن أُكلمك فأَلقني الليلة بين عسكري وعسكرك!

ابن سعد يكلم نفسه , ما يريد منِّي سبط النَّبي, دوامة في رأسه لا تهدأ , تأرجحت ذاته واضطرب ضميره كمن يعرف الحق ويخالفه , نادى على عشرين فارسا وسار للقاء الحسين.

أمره التقرب والتنحي عن فرسانه لاجتماع مغلق حضره ابن سعد وابنه حفص وغلامه لاحق , والعباس وعلي الأَكبر مع الإمام.

زجره الامام قائلا : ويحكَ أَما تتقي الله الذي إليه معادك؟

أَتقاتلني وأَنا ابنُ منْ علمت؟ يا هذا! ذَر هؤلاء القوم وكن معي، فإنَّه أَقربُ لك من الله.

وسوس له شيطانه وحرك لسانه بعذر واهي : أَخاف أَن تهدم داري!

أَردف الحسين .. أَنا أبنيها لك!

برهة صمت ,عادة دوامة رأسه ,خاطبه لبه : الحسين .. كلا ....كلا...الري , قرر : الري , تبسم , مساحة كبيرة خضراء , جواري , كؤوس خمر , موسيقى !

أطلق عنان لسانه بحجة : أخاف أَن تؤخذ ضيعتي!

ـ رَدّ الحسين: أَنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز.

استولى على لب ابن سعد شيطانه لينطق : لي عيال أخاف عليهم!

نظر لعينيه حبيب المصطفى وتعهد مخاطبه: أنا أضمن سلامتهم.

أخرس لسانه وأطبق شفتيه , انصرفَ الإمامُ عنه ,وهو يردد : مالكَ؟ ذبحكَ الله على فراشك سريعاً عاجلا، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فوالله! إنِّي لأَرجو أَن لا تأكل من بُرِّ العراق إلَّا يسيرا.

خرق عمر مسامع الحسين قائلا: يا أَبا عبد الله في الشعير عوضٌ عن البُرِّ!

يا تُرى هل نال عمرُ بن سعد أُمنيته بعد شهادة سيد الشهداء ؟

****

*(أمان وثبات)

اخترقَ العددَ الهائلَ من العَسكرِ , نزلَ المَشرعةَ وملأَ القربةَ , عاد يسقي الأطفال والنساء في خيامهم .

هواجسُ خوفِ بن ذي الجوشن وعبد الله بن المحل تحولتْ الى سلوك صبياني , ليلة لقاء الحسين مع ابن سعد , وقف شمر نحو أَصحاب الإمام يحملُ كتاب أَمان , هتف مناديا : أَين بنو أُختنا العباس وأُخوته ؟ نهض الفتية عبد الله وجعفر وعثمان كالأسود فأَجابوه : ما تريد يابْنَ ذي الجوشن ؟

أَردف : أَنتم يا بني أُختي آمنون .

ـ صاحو بغيض , لعنك الله ولعن أَمانك ,أتؤمننا وابنُ بنت رسول الله لا أَمان له !

أَأَرادَ شِمرُ صلةَ الرحم؟

أَهو الخوف من الثبات والصمود؟

ربما كان يريد تقليل معنويات أَصحاب الحسين , أَلا يعلم أَنَّهم من أَفذاذ الدنيا وممن صنعوا الفخر ؟

الفصل الخامس
(المأساة الخالدة)

*(نعى نفسه)

دخل الحسين إلى خيمته يعالج سيفه ويصلحه , سمعه أبنه الإمام زين العابدين ينشد بصوته الرخيم:

يادهـــر أف لـــك مـــن خليـــلِ كـــم لـــك بالإشـــراق والأصـــيلِ
كم صاحبٍ وطالبِ قتيلِ والـــــدهر لايقنـــــع بالبـــــديلِ
وإنمـــــا الأَمـــــرَ إلى الجليـــــلِ وكـــــلُّ حـــــيٍ ســـــالكٌ ســـــبيلِ

أختنق أبنه بعبرته , لزم الصمت , علم البلاء قد حلَّ !

اخترقت أَبيات الإمام أَسماع العقيلة , أَحست أَنَّ شقيقها وأَهلها مصممون على الشهادة ,أمسكت قلبها بذعر , وثبت تجر أذيالها ,فاضتْ عيناها بالدموع , انبرت قائلة لأَخيها : واثكلاه , واحزناه! ليت الموت اعدمني الحياة , ياحسيناه , ياسيداه , يابقية أَهل بيتاه .

استسلمت ويئست من الحياة !!

اليوم ماتَ جدّي رسول الله , وأمي فاطمة الزهراء , وأَبي علي , وأخي الحسن , يابقية الماضين وثمال الباقين .

تحنن قلب الحسين على أخته , نطق : يا أُخَيَّةَ لا يذهب بحلمك الشيطان .

شحبَ لونُه , مزق الأَسى قلبها الرقيق المعذب , كلمته بأسًى والتياع : أتغتصب نفسك اغتصاباً, فذاك أطول لحزني وأشجى لقلبي.

لم تمتلك صبرها , تيقنت أَنَّ شقيقها مقتولٌ , شقَّت جيبها , لطمتْ وجهها ,خرَّتْ على الأرض فقدتْ الوعي .

شاركتها النسوة المحنة , صاحت أم كلثوم : وامحمداه , واعلياه , وأمَّاه , واحسنياه , واضيعتنا بعدك.

ذاب قلب الإمام الزاكي , أَثَّرَ المنظرُ الرهيبُ في نفسه , تحسَّرَ , تقدَّم إلى السيدات من بنات الوحي ,أمرهن بالخلود إلى الصبر وتحمل أعباء المحنة الكبرى, ناطقاً: ياأختاه , ياأم كلثوم , وأنتِ يازينب , وأنتِ يافاطمة , وأنتِ يارباب : أنظرنَ إذا قتلتُ فلا تشققنَ عليَّ جيباً, ولاتخمشن وجهاً, ولاتقلن هجراً.

*(استنجاد)

اهتزَّ كيانُ حبيب بن مظاهر الأسدي, يرى الإمام الحسين لوحده تتظافر القوى الغابرة على حربه.

تقدَّم نحوه قائلاً: إنَّ هاهنا حيًّا من بني أسد, أعراباً ينزلون بين النهرين , وليس بيننا وبينهم إلا رواحة , أتأذن لي في إتيانهم ودعائهم , لعل الله أن يجري بهم إليك نفعاً أو يدفع عنك مكروهاً؟

الإمامُ لا يردُّ مقترحاً, كيف إذا كان من أخلص أصحابه الأفذاذ ؟ أذنَ له .

انطلق مسرعاً , مثل عندهم , خاطبهم : إنِّي أدعوكم إلى شرف الآخرة وفضائلها وجسيم ثوابها, أنا أدعوكم إلى نصرة ابن بنت رسول الله نبيكم , فقد أصبح مظلوماً, دعاه أهل الكوفة لينصروه فلمَّا أَتاهم خذلوه وعدوا عليه ليقتلوه .

استجاب سبعون شخصاً ,فأقبل عليه عبد الله بن بشر الأسدي, نطقَ , أنا أول مَنْ يجيب هذه الدعوة , ارتجز :

قــد علــم القــوم إذا تواكلــوا وأَحجــم الفرســانُ إذ تنــاقلوا

أَنِّي شــجاعٌ بطــلٌ مُقاتــل كــأَنَّني ليــثُ عــرين باســل

انسحب من بينهم جبلة بن عمرو قاصداً عمر بن سعد فأبلغه خبرهم , جَهَّزَ من جيشه مفرزة بقيادة أزرق ابن الحارث الصيداوي , منعهم من الالتحاق .

رجع حبيبُ حزيناً , أخبر الإمام , ردَّ عليه : الحمد لله كثيراً.

****

*(ليلة ودع الحياة)

وَطَّنَ نفسه على الموت ,لايعرف خياراً بين أمرين , ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد!

يعلم برسله صرعوا واستشهدوا ,عصابات البغي تنتظره بالغدر والمنايا ..

الموقف بالنسبة للحسين لايتغير ما وَطَّنَ عليه إرادته وعزمه وضميره ثابت , لكن ما عسى فعل أصحابه وأهل بيته تجاه المتغيرات ؟

جمعهم في الليل , وقف بينهم , حمد الله وأثنى عليه , أما بعد : فإنِّي لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابي , ولا أهل بيت أبرُّ وأوصلُ من أهل بيتي , فجزاكم الله خيراً ,فقد بررتم وأعنتم .

وأنكم لتعلمون أَنَّ القوم لايريدون غيري, وأَنَّ يومي معهم غداً!

وإنِّي قد أذنتُ لكم جميعاً, فانطلقوا في غير حرج, ليس عليكم منِّي ذمام .هذا هو الليل قدغشيكم , فانطلقوا في سواده قبل أن يطلع النهار ,وانجوا بأنفسكم .

هل ابنُ علي وحفيد محمد يتحدث معهم بعاطفه أو لايريد أن يحملهم مسؤولية الموقف الذي اختاره وقرار مواجهته باستبسال ؟

ويا ترى هل يتقبل الأصحاب والأَهل رأيه هذا؟

لم يكد يفرغ الإمام من كلماته حتى تحولوا جميعاً إلى أسود تزأر بالكلمات والعيون تترقرق بالدموع!

صاح أخوه لأَبيه العباس , لم نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك ؟ لا أَرنا الله ذلك أبداً.

وهبَّتْ فتيةُ آل عقيل مطلقين عنانَ أَصواتهم بلسان واحد :إذاً ما يقول الناس ؟ وما نقول ؟

إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأَنام ولم نرم معهم بسهم , ولم نطعن برمح , ولم نضرب بسيف ولاندري ماصنعوا؟ لا والله لا نفعل , ولكن نفديك بأَنفسنا وأَموالنا وأَهلينا نقاتل معك, حتى نردَ موردك ,فقبَّحَ الله العيش بعدك.

ومن أَصحابه وأَنصاره نهض مسلم بن عوسجه ودموعه تتبلور على خديه , خاطبه: أنحنُ نُخلّي عنك؟ وبِمَ نعتذر إلى الله في أداء حقّك؟! أما والله لا أُفارقك حتّى أطعنَ في صدورهم برُمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي.

وكذلك تكلم سعيد بن عبد الله النخعي معلناً ولاءَهُ الصادق إلى الإمام , تلاه زهير بن القين يزأر وينادي : والله لوَدَدْتُ أنّي قُتلتُ ثمّ نُشرْتُ ثمّ قُتِلْت حتّى أُقتل هكذا ألْف مرّة وأنّ الله جلّ وعزّ يدفعُ بذلك القَتْل عن نفسك وعن هؤلاء الفِتيان من أهل بيتك.

قام آخر وآخر من أَصحابه , كلامهم يَشبه بعضه بعضاً مرحبينَ بالموت .

نطقَ الحسينُ مخاطبهم : يا قوم إنّي غداً أُقتل وتُقْتَلون كُلّكم معي ولا يبقى منكم أحدٌ.

ـ أجابوا : الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرّفنا بالقَتْل معك أوَلا ترضى أنْ نكون معك في درجتك يا ابن رسول الله؟

نجح اختبار الإمام ليرى ظمأهم للشهادة وبيعتهم لتاريخ التضحية والفداء وسموهم للعطاء في هذا الموقف المجيد دعا لهم بالخير .

****

* تخطيط عسكري

عصراً نظم جبهته , عبَّأَ رجاله , عقد لواءَهُ , ودفع رايته لأَخيه العباس ,فحمله بين يديه , وعقد رايتين دفع أحدها لقائد جبهته على الميمنة زهير بن القَين , والأخرى لحبيب بن مظاهر قائده على الميسرة .

خرج الإمام بصحبته نافع بن هلال في غلس الليل البهيم , يتفقد التلال والروابي تحسُّباً أن لاتكون مكمنا لهجوم الأعداء , وأَمر أَصحابه تقريب الخيام من بعضها البعض , حفرَ خنادق على هيئة هلال خلف خيام أَهله وأَصحابه .

ياترى ,أراد الإمام حماية العوائل من هجوم الأعداء؟

هل طلب استقبال العدو من جهة واحدة ؟

أهذا يعني أنَّ الحسين محيط بالتنظيمات العسكرية ووقوفه على دقائقها ؟

****

*(إرجاء القتال إلى الصباح)

أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب , الإمام يجلس بجوار خيمته ,سيفه بيده , خافضاً رأسه .

سمعت عقيلة بني هاشم أصوات الرجال وتدافعهم نحو أَخيها , فزعتْ مرعوبةً , همستْ همسَ حنون : يا أخي أَما تسمع الأصوات تقترب؟!

رفع رأسه مخاطباً أخته : إنِّي رأيت رسول الله في المنام قال: إنك تروح إلينا .

أعتصر قلب العقيلة , ذابت نفسها , انهارت قواها, لطمت وجهها , ردد بنبرات حزينة: ياويلتاه .

يقترب أبو الفضل العباس ينبه الحسين : ياأخي أتاك القوم .

أمره الإمام قائلاً: اركب بنفسك أَنت يا أخي حتى تلقاهم ,وتقول لهم : ما لكم وما بدا لكم , وتسألهم عمَّا جاء بهم ؟

سار العباس ومعه عشرون فارساً , سألهم عن زحفهم, فأجابوا :جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو نناجزكم .

رجع أَبو الفضل يبلغُ أخاه بالأَمر , فأقبل حبيب بن مظاهر على القوم , يعضهم , يذكِّرهم الدار الآخرة .

طلب الإمامُ من العباس أن يعود إليهم قائلا : ارجع إليهم فأن استطعت أن تؤخرهم إلى الغدوة وتدفعهم عنا العشية .

ترى , لماذا طلب الحسين إرجاء القتال ؟!
خشي عمر بن سعد من شمر والوشاية ليستجيب طلب الإمام انبرى عمرو بن الحجاج الزبيدي فأنكر احجامهم , مخاطبهم : سبحان الله ! والله لوكان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه.

أيَّدَ ابن الأشعث مقالة ابن الحجاج , أشار على بن سعد :أجبهم إلى ما سألوا فلعمري ليصبحنَّكَ بالقتال غداً.

استجاب عمر بن سعد بعد أن رضيت أكثرية القادة , وأعلن ذلك لمعسكر الحسين , هل يستجيب الإمام لما دعوه إليه ؟
طلب الحسين إرجاء القتال إلى الغد , لأَنَّه عظيم ويعشق الله وليس لنبل روحه حدود , أخبر العباس : لعنا نصلي لربنا هذه الليلة , وندعوه ونستغفره فهو يعلم إنِّي أحبُّ الصلاة , وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار .

****

* هجوم
شنَّتْ قواتُ ابن سعد هجوماً شاملاً على معسكر أَصحاب الحسين , تصدَّى الأصحابُ وجثوا ركبهم , قذفوا الرماح والنَّبل على خيل العدو , ولَّتْ منهزمة , صرعوا رجالاً, جرحوا آخرين .
قلَّةٌ من الأَصحابِ تهزمُ كثرةً من الأَعداء!!

* مباهلة

تقدَّم يزيدُ بنُ مَعقل نحو معسكر الحسين ,نادى بأَعلى صوته : يا بُرَيرُ كيف ترى صنع اللّه بك؟

ـ أَجابه بُريرُ بنُ خُضَير الهمداني بثقة وإيمان: واللّهِ لقد صنع بي خيراً وصنع بك شرّاً.

أَردف يزيد : كذبتَ, وقبلَ اليوم ما كنت كذابا, وأنا أَشهد أَنَّك من الضَّالين.

دعاه بُريرُ إلى المباهلة قائلاً : هل لك أَن أُباهلُكَ ؟ أَن يلعنَ اللّهُ الكاذبَ منَّا ويقتل المبطلَ.

استجابَ عدو الله , تَبَاهَلا أمامَ المعسكرين, برزَ كلٌّ منهما للآخر فضرب يزيد بريراً ضربة لم تعمل فيه شيئاً.

انعطف عليه بُريرُ ,ضربه ضربة منكرة قدَّتِ المغفرَ وبلغت الدماغ, فسقط الرجس الخبيث صريعاً يتخبَّط بدمه والسيف في رأسه ولم يلبث إلَّا قليلا حتى هلك.

حمل بُريرُ على معسكر العدو , ارتجز :

أَنَا بريـــــــر وأبي خَضَـــــــير ليــثٌ يــروعُ الأُسْــدَ عنــد الزَّئْــر
يعْــرفُ فينــا الخــير أهــل الخــير أضــربكُم ولا أَرى مــن ضــير

كذاك فعلُ الخير من بُرير

هل أَراد بُريرُ أَن يُعَرِّفَهم نفسَهُ بهذا الرجز بعد أَن أَثلج الله قلبه باستجابة دعائه؟

* مصرعُ بُرَير سيِّد القراء

ازداد عزمه وإيمانه , اتجه نحو معسكر ابن سعد , يهتف : اقتربوا منِّي يا قتلة المؤمنين اقتربوا منِّي يا قتلة ابن بنت رسول ربِّ العالمين .

هرولَ إليه رضي بن منقذ العبدي , تصارعا ساعة , تمكَّنَ منه بُرير , جلس على صدره , حمل عليه من خلفه كعب بن جابر الأزدي, طعنه في ظهره , اشتَدَّ أَلمُهُ ,هوى على العبدي ,عضَّ أَنفه ,قطعَ طرفه وشدَّ عليه كعبٌ فقتله.

****

* شهادةُ عَمرو بن قريظة الأنصاري

خاضَ باستبسالٍ معركةَ الفداءِ والأيمان , يحصد رؤوس الأَعداء , يرتجزُ :

قـــدْ عَلِمْـــتْ كَتَائـــب الأَنْصَـــار أَن سَـــوْف أَحْمِـــي حَـــوْزَة الـــذِّمَار

فَعَـــل غُـــلَامٌ غَـــيْرِ نكْـــسٍ ، شـــار دُون حَســـــيْن مَهْجَـــــتِي وَدَارِي

يُقَاتلُ, يعودُ إلى الإمام يحميه من سهام اللؤماء ورماحهم , يتلقَّى السِّهام بصدره وجبهته، يصدُّ السيوفَ ببدنه ومهجته, واقفٌ كالسَّدِّ المَنيع .

أُثخِنَ بالجراح , هَوى على الأَرض وعيناه متوجهتان إلى وجه سبط النَّبيِّ ,حريصتان عليه، وشفتاهُ تتمتمان: أَوَفَيتَ يا بنَ رسولِ الله؟!

أَجابه الحسين : نعم، أنت أمامي في الجنة، فأقرئ رسول الله عني السلام، وأعلمه إني في الأثر.

يُقَاتلُ ويُقتَلُ !! فاضتْ روحُهُ إلى بارئها .

أَخو عمرو ضال مع ابن سعد , رأى جثة أخيه قتيلاً , دنا من معسكر الحسين , صاح : ياحسين يا كذاب ابن الكذاب , أَضللتَ أَخي وغررته حتى قتلته .

ـ رد الإمام عليه : إنَّ الله لم يضل أَخاك , ولكنَّه هداهُ وأضلك .

****

* مصرع مسلم بن عَوسَجَة

قتلَ عدداً من الجيش الأَموي , بينهم ابن عبد اللّه الضبابي وعبد الرحمن بن أَبي خشكارة البجلي , فكثرتْ عليه الرماحُ والنِّبالُ , أُثخنت جراحُهُ .

رأَى الإمامُ سقوط مسلم في ساحة المعركة صريعاً , سار إليه , كان عند سكرات الموت, دنا منه الحسينُ , حرَّك لسانه الشريف :

رحمك اللّه يا مسلم , فمنهم من قَضَى نَحبَهُ ومنهم مَنْ ينتظر وما بدَّلوا تبديلا.

اقترب منه أَخوهُ في الجهاد حَبيبُ بنُ مُظاهر , يُعزِّيه : عزَّ عليَّ مصرعُكَ يا مسلم, ابْشِرْ بالجَنَّة.

ـ رد عليه مسلم قائلاً: بشَّركَ اللّه بخير.

أَردف حبيب بصوت حزين :لولا أَنِّي أَعلمُ أَني في إثركَ لأَحببتُ أَن توصي إليَّ بما أَهمَّك .

ردَّ مسلم بوفاء : أُوصيكَ بالحسين أَن تموتَ دونَهُ , ففاضتْ روحُهُ الطاهرة .

تباشر المعسكر الأَموي بمقتله , ينادون في شماتة , قتلنا مسلماً.

خاطبهم شبثُ بن ربعي من معسكرهم :

ثكلتكم أمهاتكم إنَّما تقتلونَ أَنفسكم بأَيديكم , وتذلونَ أَنفسَكُم لغيركم. أَتفرحونَ بقتلِ مثلِ مُسلم؟!!

أَما والذي أَسلمت له, لرُبَّ موقف له قد رأيته في المسلمين , فقد رأيته يوم سلق اذربيجان, قتل ستة من المشركين قبل أن تنامَ خيولُ المسلمين, أفيقتل مثله وتفرحون؟

محيِّرٌ أَمر (شَبث) يَحزنُ على صحابيٍّ, ويقاتلُ ريحانةَ الرسول !!!

****

* هجوم شمر

بعد التحام الجَبهتين التحاماً رهيباً , يرى جيش ابن زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة , جنَّ جنونُهُم , هجمَ الأَبرصُ شمرُ بنُ ذي الجوشنِ بجنوده على ميسرة أَصحابِ الإمام, برز لهم من فرسان الحسين اثنان وثلاثون فارساً , دمروا هجومهم تدميراً, تجاوزوا الدفاع إلى هجوم في سرعة ماحقة , مرقوا داخل صفوفهم , طوحوا رؤوسهم كالذباب!!

****

* استنجاد عزرة

سقطَ عزرةُ بنُ قيس بيد قائد فرسان الحسين , نادى عمر بن سعد من فوق صهوة جواده ليدركه بالرماة والرجال !

أَمرَ ابنُ سعد قائده شبث بن ربعي بنجدته ,أَبى قائلاً: سبحانَ الله , شيخ مضر وأهل المصر عامة تبعثه بالرماة , لم تجد لهذا غيري !

التفت ابن سعد إلى الحصين بن تميم , دعاه لنجدة عزرة , بعثَ معه المجففة وخمسمائة من الرماة , أَمر برشق أَصحاب الحسين بالسهام , سددوا سهامهم فأَصابوا الخيول , عقروها وترجَّلوا , تثبَّتوا كالجبل الشامخ , قاتلوهم أَشدَّ قتال حتَّى استمر نصف النهار.

كبَّرَ الحسين تكبيرةً هزَّت الأَرضَ , نادت زلزالها , انقذف يضربُ بسيفه , كأنَّه القدر , لا رَادَّ لأَمرهِ , ولا مَهرَبَ من حكمه!

كان يشدُّ كالليث على غريمٍ فيصرعه , ويبصرُ آخر في طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أَصحابه , ينثني إليه كالصقر فيرديه !

راحوا يضربون ويقتلون باستبسال عظيم , كلَّما قَلَّ عددهم ازدادوا إقداماً وقوة , أكانت أَرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أَجسادها ,نضالها وقتالها؟

****

* الجبهة الثانية

خشي ابنُ سعدٍ وحدة جبهة القتال ستكبد جيشه خسائر فادحة , رأى افتتاح جبهة ثانية ليسهل القضاء على القلَّة الباقية من أَصحاب الحسين , أَوعز بتقويض مضاربه وبيوته المحيطة بأَصحابه يميناً وشمالاً, يريد اضعافَ جبهتم وانشغالهم بالدفاع عنها .

هجمَ جنودُهُ يقوضونها , كَمُنَ لهم بعضُ أَصحاب الإمام قاتلوهم وعقروا خيولهم , فشلت الخطة .

أَمَرَ ابنُ سعد بحرق الخيام ثانية ,أَحرقوها ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القلة الصامدة لقتالهم والمطوحة برؤوسهم !

حاول الأَصحاب منعهم , نهاهم الحسين منادياً: دعوهم ليحرقوها فإذا احرقوها فلا يستطيعون أَن يجوزوا إليكم .

حالت النار بينهم وبين الأصحاب , فظلت الجبهة واحدة .

****

* محاولة لحرق حرائر الوحي

حمل الرجسُ على فسطاط الإمام الذي يضمُّ السيدات من عقائل النبوة , صاح : عليَّ بالنار لأَحرقه على أَهلِهِ .

اختطفَ الرعبُ قلوبَ بناتِ الرسول , سرت الرعدةُ بأوصالهن , خرجنَ مذعوراتٍ خلفنَ الصبية والأَطفال يضجون بالبكاء , التاع الحسين , فخاطبه : أَنتَ تحرقُ بيتي على أَهلي !؟ أَحرقكَ الله بالنار.

لم ينثنِ الرجسُ الخبيثُ عن عزمه , ظل يهتف بجنوده ليوافوه بقبسٍ من النار لحرق الخيام .

رأَى حميدُ بن مسلم الخوف يستولي على بنات رسول الله , أَنكر على الشِّمرِ فعلتَهُ , خاطبه : إنَّ هذا لا يصلح لك ,أَتريد أَن تجمع على نفسك خصلتين , تعذب بعذاب الله , وتقتل الولدان والنساء , والله إنَّ في قتل الرجال لما يرضى به أَميرك.

صاحَ الشِّمرُ : مَنْ أَنتَ؟

خشي حميدُ من وشايته عند ابن زياد , أَجابه : لا أُخبركَ مَنْ أَنا.

أَسرعَ شبثُ بن ربعي يوبخ الشِّمرَ , نهاه , استجابَ له على كُرهٍ , حمل عليه زهير بنُ القَين مع عشرة من الفرسان , التحموا مع جنوده فقتلوا أَبا مُرَّة الضّبابي من أُسرة الشمر .
أَرغموهُ على الرجوع .

****

* صَلاةٌ وسهام

الموت ينوشُهُ وينوشُ أَصحابَهُ , أَيَغفَلُ عن الفريضةِ وإداء الواجب ؟

انتصف النهارُ , جاء ميقاتُ الظُّهرِ , وموعدُ الصلاة , شَغَلَ فكرَهُ بأَداء الفريضةِ رغم ما يعانيه في الخطوب الفادحة التي تتصدَّعُ منها الجبال , طلبَ من أعدائه أَنْ يمهلوهُ , فاستجابوا .
نادى الحسين بالصَّلاة , صلاةِ حربٍ وقتالٍ!

هل رأَى الأَعداء جلالته ,جماله , عظمته , أَليس هذه الحرب من أَجل الصلاة ؟

وقف سعيد بن عبد الله الحنفي كحاجز يقي بنفسه الإمامَ ومَنْ صَلَّى خَلفَهُ, اغتنموا فرصة الصلاة ,رشقوا المصلي بالسهام ,أَين عهدُهُم لحينِ انتهاء الفريضة ؟

بادرَ سعيد يستقبل السهام بصدره ونحره , وقف ثابتاً كالجبل , أُثخِنَ بجراحه , هوى إلى الأَرض يتخبَّط بدمه, لهج لسانه بنبرات

خافته : اللهم العَنهُم لعنَ عادٍ وثمود, وأَبلغ منِّي نبيكَ السَّلام , وأَبلغه ما بلغتُ من الجراح فإنِّي أَردتُ بذلك ثوابك ونصرة ذرية نبيك .

التفت إلى الإمام قائلاً: أَوفيت يابنَ رسولِ الله ؟

فأجابه : نعم أَنت أَمامي في الجنَّةِ .

****

* مصرع زهير

اتَّجَهَ صوبَ الحسين , وضعَ يدَهُ على منكبِ الإمام , خاطبه :

أقــدمْ هُــديتَ هَــادياً مَهــدياً ... فــاليومَ تَلقــى جــدَّكَ النَّبيّــا

وحســناً والمُرتَضَــى عليــاً ... وذا الجَنــاحين الفَــتى الكَميّــا

وأسد الله الشّهيد الحيَّا

أَجابهَ الحسينَ : وأَناأَلقاهم على إثركَ.

حُملَ على معسكر ابن زياد ولسانه ينطق :

أنا زهــير وأنا ابــن القــين ... أذودكــم بالســيف عــن حســين

إنَّ حَســيناً أَحــد السّــبطين ... مــنْ عــترة البــرّ التّقــيّ الــزَّين

ذاكَ رَســولُ الله غــيرُ المَــين ... أَضــربكُمْ ولا أَرى مــن شَــين

يا ليتَ نفسي قُسّمتْ قسمين

قاتلَ بعنفٍ وأَشدَّ شجاعة , شدَّ عليه مُهاجرُ بنُ أَوس التميمي وكثيرُ بن عبد الله الشعبي, فقتلاه.

مشى لمصرعه الحسينُ ,أَلقى عليه نظرةَ الوداع الأَخيرة حرك شفتيه يؤبنه: لا يبعدنك الله يا زهير ,ولعنَ الله قَاتليك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير.

****

* مصارع الأَصحاب

أَحاط باقي الأَصحاب به يقاتلونَ من حوله , يذودونَ عنه , جلُّ هَمِّهم وأَمانيهم تؤآتيهم مناياهم وهم بين يديه .

نادى حنظلة بن سعد أَعداء الحق: إنِّي أَخاف عليكم يوم التناد, فإياكم وقتل الحسين فقد خابَ مَنْ افترى .

ثبت بين يدي الإمام كَسُورٍ لا تزحزحُهُ عشراتُ السيوف والرماح التي اتخذته هدفاً, ظل يقاتل حتى قتل شهيداً.

اقتربا من البطل سيف الله بن الحارس وأَخوه مالك عانقاهُ وهم يقولانَ له : موعدنا الجنَّة .

قاتلا معاً حتَّى أدركتهما الشهادة .

وهذا عبد الله بن عروة وأخوه عبد الرحمن يصليان صفوفَ الأَعداء سعيراً , ثَقُلَ جَسدَاهما بالطَّعنِ والضَّربِ , وقعا على الأَرض خائري القوى , وقعت أَعينهم على الإمام يقاتلُ وحدَهُ العشرات , انتفضت في فيهما من جديد عافيةُ الأُسُودِ , تضرم بأسهما , نَهَضَا بين يديه في قتالٍ مريرٍ , فوقع أَجرهما على الله شهيدين مطيعين.

وهكذا قاتل شوذب وعباس بن أَبي شبيب ونافع بن هلال وسويد بن أَبي المطاع , وعشرات من إخوانهم راحوا يقاتلون في جسارة وغبطة , كلَّما سقطَ واحدٌ جريحاً نهضَ من فوق جراحه ,وسبحَ فوقَ دمائه حتَّى يعودَ فيقاتلَ قتالاً بعزم شامخ وثباتٍ مَكينٍ , لحقوا جميعاً بإخوانهم الذين سبقوهم أَوَّل النَّهار .

****

* مصرعُ عليٍّ الأَكبر

بعُمرِ ثمانيةَ عشرَ عاماً , كَحُبٍّ يعقوبَ ليوسُفَ , شَغِفَ أَبوهُ بحبِّه, أَعضاؤهُ مُقطَّعةٌ واشلاؤهُ موزَّعةٌ على ثَرَى كَربلاء !

دَخَلَ سَاحَ الوَغضى بحَماسٍ كبأس حمزةَ وشجاعةِ حيدرَ ومهابةِ أَحمدَ , يراهُ الحسينُ قد ساقَ نفسه إلى الموت رفعَ كفَّيه إلى السَّماء , نطقَ بحرارةٍ وأَلمٍ ممضين : "اللهمَّ اشهَدْ على هؤلاءِ، فقد بَرزَ إليهِم أَشْبهُ الناسِ خَلْقاً وخُلُقاً ومَنْطقاً برسولِك محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه، وكنَّا إذا اشتقْنَا إلى رؤيةِ نبيِّكَ نظرْنَا إليه، اللهمَّ امنعْهُمْ بركاتِ الأرضِ، وفرِّقهُمْ تفريقاً، ومزِّقْهُم تمزيقاً، واجعلْهُم طرائقَ قِدَداً1، ولا تُرْضِ الوُلاةَ عنهم أَبَداً، فإنَّهم دَعَوْنا ليَنْصُرونا، فعدَوْا علينا يُقاتِلُونَنَا".

توسَّطَ حِرابَ الأَعداءِ وسيوفِهم , ينشُدُ :

أَنا علـيٌّ بـنُ الحسـين بـنِ علـي نحـنُ وبيـت الله أَولـى بالنَّـبي

تالله لا يَحْكُـمُ فينـا بـنُ الدَّعـي أَطـعنَكم بالرُّمـحِ حـتَّى ينْثَـني
أَضـرِبُكُمْ بالسَّـيف أَحْمـي عَـن أَبي ضَـرْبَ غُـلام هاشـمي علَـوي

مضى يضربُ ويَضربُ حتى قتلَ جَمَعًا من الأَعداءِ, أَصابَهُ الظمأ , عادَ إلى أَبيه بعد إصابته بجراحاتٍ , حرَّكَ شفتيهِ الذابلتَينِ من شِدَّةِ العطشِ, فهَمَس في أُذني الحسينِ الواعية : يا أَبَهْ، العطشُ قدْ قَتَلَني، وثِقلُ الحديدِ قدْ أجْهدَني، فَهَلْ إلى شُربةِ ماءٍ من سبيلٍ أتقوَّى بها على الأعداءِ؟

سالتْ دموعُ الحسينِ على الخَدينِ التَّريبينِ كغزارةِ المَطرِ, نَطَقَ لسانُ الحقِّ: يا بُني، عزَّ على محمّدٍ وعلى عليٍّ وعلى أَبيكَ أَنْ تَدعوهم فلا يُجيبونَكَ، وتَستغيثُ بهِمْ فلا يُغيثونَكَ. يا بُني, هاتِ لسانَكَ، فَأَخَذَ لسانَهُ فَمَصَّهُ، ودفعَ إليه خاتَمَهُ قائلاً:: ((خُذْ هذَا الخاتَمَ في فيكَ وَارْجعْ إلى قِتالِ عَدوّكَ؛ فإنِّي أَرجُو أَلَّا تُمسِي حتَّى يَسقِيكَ جَدُّكَ بكأسِهِ الأَوفَى شرِبَةً لاتَظْمَأ بعدَها أَبداً)).

عادَ إلى المَعركَةِ وحملَ مُرَدِدًا :

الحـربَ قَـد بانَـتْ لهـا حقـائقْ وظَهَـرتْ مـن بَعـدها مَصَـادقْ
واللهِ ربِّ العَـرش لا نُفـارقْ جمـوعَكُم أَو تُغمَـدُ البـوارقْ

قَاتَلَ قتالَ الأَبطالِ , أَصابَتهُ طَعنةُ رُمحٍ , وقعَ على الأَرضِ , احتَوَشَهُ الأَعداءُ ,انهَالوا عليهِ ضَرباً بالسيوفِ , نَهَضَ واعتنقَ فَرَسَهُ!

أَحاطَ الجيشُ بالأَكبرِ , تدفَّقَ الدمُ من رأسِهِ على عَينيِّ الجَوادِ, منعهُ من الاهتداءِ إلى معسكرِ الحسينِ، حَمَلهُ إلى عَسكرِ الأَعداءِ الذين دَعَاهُم الحقدُ واللؤمُ إلى أَنْ يَنهالوا عليهِ بسيوفِهِم ويُقطِّعوهُ ارباً ارباً.

بلغتْ رُوحهُ التراقي نادى رافعاً صوتَهُ: يا أَبَتاهُ، هذا جَدِّي رسولُ اللهِ قد سَقاني بكأسِهِ الأَوفى شُربةً لا أظمأُ بعدَها أبداً، وهوَ يقولُ لكَ: العَجلَ، العَجلَ، فإنّ لك كأساً مَذْخورةً. حتى تَشربَها الساعةَ. خاطبَه الحسينُ وآهاتهُ في صَدرهِ وعَبرتُهُ تَختنقُ والحَسَراتُ محبوسةٌ، يُكفكِفُ بقايا دموعِهِ مُحتسباً صابراً, وبعدَ ساعاتٍ من مَصرعِ فَلذةِ كَبدِهِ سيلحَقُهُ , دَعَا: "قَتَلَ اللهُ قوماً قتلوكَ يا بُنيَّ، ما أَجرَأَهُمْ على الرحمنِ، وعلى انتهاكِ حُرْمةِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وآله! على الدّنيا بعدَكَ العَفا.

أَقبلَ الإمامُ الحسينُ إلى فتيانِ بَني هاشِمَ ,أَمَرَهم: " احْمِلُوا أَخاكُم"، حَمَلوهُ برباطَةِ جأشٍ تُذهِلُ كلَّ حيٍّ من مَصرعِهِ.

أبصرتْ عمَّتُهُ العقيلةُ جثمانَهُ , علتْ زفراتُ أَساها , حرَّكتْ شَفَتيها : يا حَبيبَاهُ، يابنَ أُخَيَّاه. كنتَ قبلَ دقائقَ يَملأُ الأَعينَ , شَبابُكَ , بَهاؤكَ , سَناؤكَ ؟!

انكبَّتْ على الأَشلاءِ الطاهرةِ الناظرةِ , تُضَمِّخُها بدموعِها وشَجَنِها .

* مصارع آل عقيل وآل الحسن .

تقدَّمَ عبدُ الله بنُ مسلم وجَعفرُ وعبدُ الرحمنِ وعليّ وعبدُ اللهِ الأَكبر أَولادُ عَقيل, ومحمَّدُ بنُ أَبي سعيد بن عقيل ومحمَّدُ بنُ مسلم , كأَنَّهم صقورٌ كَواسِرٌ , يقاتلونَ قتالَ الأُسُودِ وتَلهَجُ أَلْسِنَتُهُم بالأَراجيز حتَّى استُشْهِدوا .

وتقدَّمَ أَبناءُ جعفرٍ, عَونُ , محمَّدُ , عبدُ الله . وأَبناءُ عبدِ اللهِ بنِ جعفر أَولادِ العقيلةِ زينب, فقتلوا جميعًا .

وتقدَّمتْ الفتيةُ في غَضَارةِ العُمرِ وريعانِ الشَّبابِ من أَبناءِ الإمام الحَسَنِ, عبدُ اللهِ بنُ الحَسَنِ , برزَ للحربِ فتَنَاهبتْ جسمَهُ السيوفُ والرِّماحُ , خَرَّ إلى الأرض صَريعًا.

والحسنُ المثنى , أُصيبَ وحملَهُ أَسماءُ بنُ خَارجةَ الفَزَاريّ وأَخفاهُ يُعالِجُ جراحَهُ , فَلَحِقَ إلى يَثربَ.

يرنو القاسمُ بنُ الحَسَنِ كالقَمرِ لعمِّهِ الحسينِ في مِحنَتِهِ وصلَ مسامَعهُ في يوم العاشر من محرم نداءُ عَمِّه وصوتهُ: واغُربَتَاهُ ... واقِلَّةَ نَاصِرَاه ... أَما مِنْ مُعينٍ يُعينُنَا؟ أَمَا مِنْ نَاصرٍ يَنصُرُنَا؟ أَما مِنْ ذابٍ يَذبُّ عن بَنَاتِ رَسولِ اللهِ؟ فَصَرَخَ : لايُقتَلُ عمِّي وأَنا أَحمِلُ السَّيفَ .

هرولَ الفتى وانكبَّ على قَدَمَي عمِّهِ يُقبلهما ويَتَوسَّلُ إليه أَنْ يأذنَ لهُ في القتالِ . وضعَ الإمامُ الحسينُ يديهِ على كتفَي القاسمِ

ورفَعَهُ وقَبَّلَهُ في جبينِهِ وهَمَسَ في أُذنيه: أَنتَ البقيَّةُ من أَخي الحَسنِ. دخلتْ اللوعةُ في قلبِ الصَّبي وكأَنَّه يكلِّمُ نفسَهُ : عَمِّي يَخشَى أَن أُقتَلَ وربَّما يَرَاني صغيرًا , عادَ إلى الخَيمةِ مَكسورَ الخَاطِرِ .

نظرتْ أُمُّهُ (رَملَة) لوجهِهِ بعد أَنْ سمعتْ جوابَ عمِّهِ إليه , فأَخرجَتْ صندوقَ زوجِها الحَسنِ , ثم نادتْ ولدَها : ولدي قاسم أدنُ منِّي . اقتربَ منها ولدُها وقد غلبَ الحُزنُ على مُحيَّاه , فدفعت الصندوقَ ووضعَتهُ بينَ يديهِ قائلةً : هذا ارثُ أَبيكَ إليكَ, وقد أَوصاني أَنْ أَدفَعَ إليكَ لباسَهُ فأَلبَسَتْهُ ثوبَ الحَسَنِ. وأَخذتْ مَنطقةَ الحَسَنِ وشدَّتها في وسطِ القاسمِ ورفعتِ الثَّوبَ قليلًا ثمَّ أَخذتْ قَميصَ أَبيهِ فأَلبَسَتْهُ ثمَّ أَلبَسَتْهُ عمامَةَ أَبيهِ.

وقفَ أَمامَها فأَخذتْ تَبكي بحرقةٍ وأَلمٍ ولوعةٍ, دفعتْ إليهِ كتاباً مختوماً من أَبيه قالتْ لهُ بُنَي قاسم: هذهِ وصيةُ أَبيكَ الحَسَنِ إليكَ كتبَها إليكَ يوماً وهو يبكي . تلقَّفَها القاسمُ متلهفاً وفيها خط والده فتحَها فاذا فيها: بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم بُنَي قاسم أَنَا أَبوكَ الحَسَنُ إذا رَأَيتَ عَمَّكَ الحُسين يُجيرُ ولا يُجَارُ ويَطلِبُ النُّصرَةَ فلا يُنتَصَرُ له وحيداً فريداً بِلا ناصِرٍ ولامُعِينٍ فَابُذلْ مُهجتَكَ دونَهُ فَإنْ أَبَى وامتَنَعَ فَأَرهِ خِطابِي هذا فإنَّهُ لنْ يَردَّكَ أَبداً .

سالتْ دموعُ القاسمِ على خدَّيهِ وبَكَى بلوعةٍ وحرقةٍ, وأَظنُّ قد دارَ في خَلَدِهِ: شَعَرَ باليُتمِ, وعَظيمِ الفاجعَةِ , والمُصابُ الذي حَلَّ

بعمِّهِ ذَهَبَ مسرعاً إلى إمامِهِ الحسينِ رافعاً الكتابَ بكفِّهِ, أَخذَهُ الإمامُ منهُ. وكانَ يعرفُ خَطَّ أَخيهِ , قبَّلَهُ وقرأَ ما فيه فَأَجهَشَ بالبكاءِ، ثمَّ ضمَّ القاسمَ لصَدرهِ, فبكيَا معاً حتَّى أُغشي عليهما. انتبهَ الفتى ليطرقَ مَسَامعَ عمِّه: ياعمَّاهُ لاطاقةَ لي على البقاء وأَرى أُخوتي وبَني عمومتي مُجَزرينَ على الرَّمضاء، وأَراكَ وحيداً فريداً.

ردَّ الحسينُ: يا ولدي أَتَمشِي برجلِكِ للموت؟

وكيفَ لا يا عَمّ وأَنَت بينَ الأَعداءِ وحيداً فريداً لم تَجِدْ ناصراً ولامعيناً. روحي لروحِكَ الفداء ونفسي لنفسِكَ الوقاء

أَردَفَ عمُّه بسؤال: بُنَّي قاسم كيفَ تَجِدُ الموتَ؟

أَجابهُ الغلامُ كصاحبِ بصيرةٍ: في سَبيلكَ ياعمُّ أَشهَى من العَسلِ .

أَذِنَ لهُ بالقتالِ بعدَ سَمَاعِهِ إجابةَ القاسمِ التي وجدَ فيها النضوجَ والبصيرةَ , , ناداهُ: حبيبي قاسم هَلُمَّ إليَّ , دَنَا منهُ فأَخذهُ الحسينُ وضمَّه إلى صَدرهِ وقَبَّلَ ما بينَ عَينيهِ, تناولَ الحسينُ عَمَامةَ القاسم قَسَمَها نِصفَينِ وأَدلاها على وجههِ, وأَخذَ ثوبَ القاسم فشقَّهُ وأَدالَهُ على ابنِ أَخيه كهيئةِ الكَفَنِ و كأَنَّ الحسينَ تَيقَّنَ أَنَّ القاسمَ مقتولٌ لامحالةَ . فما لبثَ إلَّا وثارَ ثورةَ الضِّرغامِ بيدهِ السَّيف وعليه قَميصٌ وإزارٌ وفي رجليهِ نعلانِ ، جعلَ يمشي بينَ صفوفِ الأَعداءِ ويَضربُ بسيفِهِ، مُستخفّاً بالموتِ غيرَ آبهٍ بالجَمعِ كما يَفعَلُ الرِّجالُ الصَّناديدُ

غير أَنَّ شِسْعَ نَعلِهِ اليُسرى تعرَّضَ للقطع فَأَنِفَ أن يَحتَفِيَ في الميدانِ وهو ابنُ أَعظمِ الأَنبياءِ, فوقفَ يَشُدُّ الشِّسعَ، وهو يرتجزُ :

إنْ تُنْكِرُونِي فأنا نجلُ الحسَنْ ... سبط النَّبِيِّ المصطفى والمؤتمَنْ
حسين كالأَسير المرتهَن ... بين أناس لا سقُوا صوب المُزنْ

أَنِفَ سليلُ النبوةِ والإمامةِ أَن تكونَ إحدى رجليه بلا نَعلٍ فوقفَ يشدّهُ متحدياً لهم، واغتنم هذه الفرصةَ كلبٌ من كلابِ ذلك الجيشِ وهو عَمرو بن سعدٍ الأَزْديّ قائلاً: واللهِ لأشدّنَّ عليه! ، فأَنكرَ عليهِ ذلك حميدُ بنُ مسلمٍ، وقالَ له : سُبحانَ الله، وما تُريد بذلك؟! واللهِ لو ضَرَبَني ما بَسَطتُ إليه يدي، يكفيه هؤلاءِ الذين تَراهُم قد احتَوَشُوه،... فلم يَعِنْ الخبيثُ بهِ، فشدَّ عليه، فما ولَّى حتَّى ضَرَبَ رأسَهُ بالسَّيفِ , فَهَوى إلى الأَرضِ كما تَهوي النُّجومُ صريعاً يتخبَّطُ بدمِهِ القاني.

نادى الغلامُ بأَعلَى صوتِهِ : ياعَمَّاهُ أَدركني. سمعَ الإمامُ هذا النِّداءَ فتقطَّعَ قلبُهُ وفاضتْ نفسُهُ أَسَى وحسرات، انثنَى نحو ابنِ أَخيهِ يضمُّهُ , يَشمُّهُ , ويتملَّى في جسدِهِ المُثخَنِ , رونقَ الزهور!

عمدَ إلى قاتلِهِ فضربَهُ بالسَّيف، فاتقاها بساعدِهِ فقطعَها من المِرفَقِ، وطرحَهُ أَرضاً، وحملتْ خيلُ أَهلِ الكوفةِ لاستنقاذِهِ إلَّا أَنَّ الأَثيم هلكَ تحتَ حوافرِ الخَيل.

عادَ الإمامُ يوسعُهُ تقبيلاً والفتى يَفحَصُ بيديهِ ورجليهِ كالطيرِ المَذبوحِ ، خاطبَهُ الإمامُ بذَوبِ روحِهِ : بُعداً لِقَومٍ قَتَلوكَ ! ومَن خَصمُهُم يَومَ القِيامَةِ جَدُّكَ وأبوكَ، عَزَّ وَاللَّهِ عَلى عَمِّكَ أن تَدعُوَهُ فَلا يُجيبَكَ ، أو أن يُجيبَكَ وأنتَ قَتيلٌ جَديلٌ فَلا يَنفَعَكَ ، هذا وَاللَّهِ يَومٌ كَثُرَ واتِرُهُ وقَلَّ ناصِرُهُ.

وحملَ الإمامُ ابنَ أَخيه بينَ ذراعيهِ، وهو يَفحَصُ بيديهِ ورجليهِ، حتَّى فاضتْ نفسُهُ الزكيةَ بين يديه، وجاءَ بهِ فَأَلقاهُ بجوار ولدهِ عليٍّ الأَكبر، وسائرِ القتلى المُمَجَّدينَ من أَهلِ بيتِهِ، أَخَذَ يطيلُ النظرَ إليهم , تَصدَّعَ قلبُهُ، أَخَذَ يدعو على السَّفاكينَ المجرمينَ الذين استباحوا قتلَ ذريَّةِ نَبيِّهم، قائلاً : (اللهم احصِهِمْ عَدَدا، ولا تُغادِرْ منهم أَحداً، ولاتَغفِرْ لهم أَبداً، صَبراً يا بَنِي عُمُومَتِي ، صبراً يا أَهل بَيتِي، لارأيتم هَواناً بعدَ هذا اليومِ أبداً).

****

* مصرعُ العباسِ وأخوته

انبَرَى للحربِ عبدُ الله بنُ عليٍّ وجعفرُ وعثمانُ ومحمَّدُ الأَصغر وأَبو بكر ,يقذفونَ بأَنفسهم وسطَ الهَولِ , وأَخوهم العباسُ يهتفُ به قائلًا:

تقدَّمُوا يا بَني أمِّي حتَّى أراكم قدْ نَصَحتم للهِ ولرسولِهِ، فإنَّه لا وُلْدَ لكم.

التفَتَ أَبو الفَضلِ لأَخيهِ الأَكبرِ عَبدِ اللهِ ,فخاطبَهُ: تقدَّمْ يا أَخي حتَّى أَراكَ قَتيلًا وأَحتَسِبُكَ.

هَروَلوا إلى قَلبِ الجَيشِ المَسعورِ , لا يُبَالونَ بسيوفِهِ العاويةِ , ورماحِهِ الباغيةِ.

قاتلَ عبدُ اللهِ أَعنفَ وَأَشدَّ قتالٍ حتَّى غَدَرَهُ مِنَ الأَعداءِ هَانِيُ بنَ ثُبَيْتٍ الحَضْرَمِيُّ فَقَتَلَهُ .

وعادَ عدوُّ اللهِ هَانِيُ بنُ ثُبَيْتٍ الحَضْرَمِيُّ يَتَربَّصُ بجعفَرٍ وهو يُقاتلُ فَقَتَلَهُ .

وقتلَ عُثمانُ بنُ عليٍّ عدداً , رَماهُ خُوَلِّي بنُ يَزيدَ الأَصبَحِيُّ بسَهمٍ , ضَعُفَ على أَثَرِهِ , وشَدَّ عليهِ رَجُلٌ من بَني دَارمٍ فَحزَّ رأسَهُ, وأَخذهُ يَتَقَرَّبُ بهِ إلى ابنِ مِرجَانَةٍ .

انبرى العباسُ إلى أَخيهِ الحُسينُ يَطلبُ منهُ الرُّخصَةَ بالقتالِ ليلاقي مَصيرَهُ المُشرقَ , هَمَسَ بأُذُنِهِ الإمامُ بصوتٍ خافتٍ : أَنتَ صَاحِبُ لوائي.

أَلَحَّ أَبو الفَضلِ مخاطباً الحسينَ : لقد ضَاقَ صَدري من هؤلاءِ المُنَافقينَ , وأَريدُ أَن أَخذَ ثأري منهم .

طلبَ منه الإمامُ أَنْ يسعَى لتحصيلِ الماءِ إلى الأَطفالِ الذينَ صَرَعَهُم العَطَشُ .

رَكَبَ فَرَسَهُ المُطَهَّمَ ورجلاهُ تَخُطَّانِ في الأَرضِ , وَصَلَهُم , وَعَظَهُم ,حَذَّرَهُم من غَضَبِ اللهِ ونِقمَتِهِ , خَاطَبَ ابنَ سعدٍ : هذا الحسينُ ابنُ بِنتِ رسولِ اللهِ قد قَتَلتُم أَصحابَهُ وأَهلَ بيتِهِ , وهؤلاءِ عِيالُهُ وأَولادُهُ عَطَاشَى فَاسقوهُم منَ الماءِ , قد أَحرَقَ الظَّمأ قُلوبَهُم .

وودَّ من كلامِ العباسِ أَنْ تَسيحَ بهم الأَرضَ , بَكَى بعضُهُم , سادَ صَمتٌ رَهيبٌ .

شِمْرُ بنُ ذِي الجَوشَنِ تَحَسَّسَ رأفةً بالقومِ , بادرَ قائلاً: يابنَ أَبي تُراب ,لو كانَ وَجهُ الأَرضِ كُلُّهُ ماءً وهو تَحتَ أَيدينا لمَا سَقيناكُمْ منهُ قَطرَةً إِلَّا أَن تَدخلوا بَيعَةَ يَزيد.

عادَ أَبو الفَضلِ لأَخيهِ الإمامِ , أَخبرَهُ عُتُوَّ القومِ وطغيانهم , سَمِعَ الأَبِيُّ الشَّهمِ صُراخَ الأَطفالِ, يَستغيثونَ وينادونَ :العَطَشَ العَطَشَ , المَاءَ المَاءَ.

رأَى شِفَاهَهَم ذَابلاتٍ , تَغَيَّرتْ أَلوانُهُم , أَشرفَوا على الهَلاكِ من شِدَّةِ الظَّمأ !

وفزعَ أَبو الفَضلِ وسَرَى الأَلمُ العَاصِفُ في مُحَيَّاهُ, اندفعَ ببسالةٍ لإغَاثَتِهم , حَملَ القِربَةَ , رَكَبَ جوادَهُ , اقتَحَمَ الفراتَ وفَكَّ الحِصَارَ عنِ الماءِ , انهزَمَ الجَيشُ منِ أَمَامِهِ , ذَكَّرَهم بصَولاتِ والدِهِ , انتَهَى إلى الماءِ , قلبُهُ الشَّريفُ نَفَثَ منَ العَطَشِ , اغترفَ من الماءِ غرفةً

ليشرَبَ , تَذَكَّرَ عطشَ الحسينِ ونَسائِهِ وأَطفالِهِ , رَمَى الماءَ من يديهِ , امتَنَعَ أَن يَروي غَليلَهُ , قائلًا:

يا نَفْسُ من بعدِ الحسينِ هُوني ... وبعدَهُ لاَ كُنْتِ أنْ تَكوني
هذا حسينٌ وارِدُ المَنونِ ... وتَشْرَبينَ بارِدَ المَعينِ
تاللهِ ما هذا فعالُ ديني ... ولا فعالُ صادقِ اليقينِ

ملأَ القِربةَ بالماءِ واتَّجهَ فخرُ هاشِمَ نحو المَخيمِ , التَحَمَ معَ الأَعداءِ أَثناءَ الطَّريقِ ,أَشَاعَ فيهم القتلَ , يَحصدُ الرُّؤوسَ وهو يَرتجزُ:

لا أَرهبُ الموتَ إذا الموتُ زَقَا ... حتَّى أُوارى في المَصاليت
نفسي لسبطِ المُصْطَفى الطُّهرِ ... إِني أَنا العبَّاس أَغْدُو بالسّقا
ولا أَخافُ الشَّرَّ يوم المُلتقى

كَمُنَ لهُ زَيدُ بنُ رُقَادٍ من وراءَ نَخلَةٍ , ذَهَبَ لهُ منْ خَلفِهِ , ضَرَبَهُ على يَمينِهِ فَبَرَأَها .

لمْ يعن عن قَطعِ يَمينِهِ , ارتجَزَ أَبو الفضلِ قائلاً:

واللهِ إن قَطعتُمُ يميني ... إنّي أُحامي أَبَداً عن ديني
وعن إمامِ صادقِ اليقينِ ... نَجْلِ النّبي الطاهرِ الأَمين

بعدَ بُرهَةٍ كَمُنَ لهُ حَكِيمُ بنُ الطُّفَيلِ الطَّائيّ من وَراءِ نَخلَةٍ , ضَرَبَهُ من خَلفِهِ على يَسارِهِ فَبَرأَها , حَمَلَ القِربةَ بأَسنانِهِ , رَكَضَ بها نحو عَطَاشَى أَهلِ البيتِ غَيرَ مُبَالٍ ممَّا يُعانيهِ منَ الأَلمِ ونَزفِ الجراحِ وشِدَّةِ الظَّمأ , أَصابَ القِربَةَ سَهمٌ غَادرٌ فَأُريقَ المَاءُ .

وقفَ العبَّاسُ حزيناً , يتأَمَّلُ, اراقَةُ المَاءِ عندَهُ أَشدُّ من ضَربِ السُّيوفِ والرِّماحِ .

استَغَلَّ العدو وقوفَهُ , هَرولَ إليه خبيثٌ يحملُ عموداً من حَديدٍ , ضَرَبَهُ على رأسِهِ فَفَلَقَ هامَتَهُ , هَوَى إلى الأَرضِ , التقطَ أَنفَاسَهُ الأَخيرةَ بتحيةٍ ووَدَاعٍ لأَخيه : عليكَ مِنِّي السَّلامُ يا أَبا عَبدِ اللهِ .

حملَ الأَثيرُ كلمَاتِهِ إلى الحسينِ , حَرَقَهُ قلبُهُ , مُزِّقَتْ أَحشاؤهُ , اقتَحَمَ بجَوادِهِ جيشَ الأَعداءِ ,أَلقَى بنفسِهِ عليهِ , شَمَّهُ ,ضَمَّخَهُ بدموعِ عَينيهِ , لَفَظَ قائلًا: الآنَ انكَسَرَ ظَهري , وقَلَّتْ حِيلَتِي , وشَمَتَ بِي عَدُوِّي .

يا تُرَى هلْ هناكَ بينَ الإنسانيَّةِ هكذا أُخوةُ تَضحيَةٍ وفِداءُ نَفس ؟

****

* استغاثة

وقفَ الحسينُ وحيدًا, سَقَطَ الأَبطالُ من أَصحابِهِ وآلِهِ في الحَومَةِ , كلّهم عانقوا الشَّهادةَ في سبيلِ الحَقِّ .

ينظرُ المُمتَحِنُ نظرةَ أَسىً وحَسَراتٍ إلى منْ رَحَلوا مُجَزَّرينَ كالأَضاحِي , تُصهرهُم الشَّمسُ .

أَحاطَ بهِ القَتلَةُ الذين سُمِّروا في أَماكنِهِم , زَائغةً أَبصارُهُم ,واجفةً قلوبُهُم .

يسمعُ ارتفاع أَصواتِ عِيَالهِ بالبكاءِ , طَلَبَ النَّاصرَ والمُعينَ مستغيثاً: هل مِنْ ذابٍ يذبُّ عن حرمِ رسولِ اللهِ , هلْ مِنْ مُوحدٍ يَخافُ اللهَ فينا , هلْ مِنْ مُغيثٍ يرجو اللهَ في اغاثَتِنَا ؟

هلْ اخترقتْ هذهِ الاستغاثَةُ القلوبَ , أَو رانَ عليها الباطِلُ وحَجزتَها الآثامُ ؟

سَمِعَ زينُ العابدينَ صوتَ والدِهِ الحَزين , انتفَضَ من فراشِهِ قائماً , تؤكأَ على عصاهُ , بَصُرَ بهِ الحسينُ , صاحَ أُختَهُ أُمَّ كلثوم :احبِسيهِ لئَلَّا تَخلو الأَرضُ مِنْ نَسلِ آلِ محمَّد , بادرتْ إليه , أَرجَعَتهُ إلى فراشِهِ.

****

* مصرعُ الرَّضِيع

مياهُ الفراتِ تَتَلألأ تحتَ أَشعةِ الشَّمسِ تدعو كلَّ ظامئ ليرتوي منها.

الرَّضيعُ بعمرِ الزُّهورِ بحِجرِ أُمِّهِ , جَفَّ حَليبُ الأُمِّ، غارتْ عَيناهُ ,أَرهَقَهُ الظَّمأ !

هَل هذا الظَّمأ سَبَبُهُ شُحُّ الماءِ أَو شُحُّ المُروءةِ ونُبلُ الأَخلاقِ وتجرُّدٌ من الإنسانيَّة؟

ياتُرَى أَمياهُ الفراتِ محرَّمة على سِبطِ سيِّدِ الخَلقِ وأَهلهِ؟

دخلَ الحسينُ يودِّعه الوداعَ الأَخير , التصقَ بحُضن أَبيهِ, وسعَهُ من شَفتيهِ الذَّابلَتينِ تَقبيلاً , تمايلَ بينَ يَديهِ يَشيحُ بوجهِهِ وَهْنًا وعَطَشًا, أُغمِي عليه .

ظَلَّلَهُ الإمامُ بردائِهِ من حَرارةِ الشَّمسِ , حَمَلَهُ إلى القومِ , يَستَدرُّ عَواطفَهم , لعلَّ بذرةً إنسانيَّةً متبقيةً تُخرجهم من بينِ دَهاليزِ القَسوةِ والوَحشيَّةِ , صاحَ الأَبُ المكلومُ : إن كانَ ذَنبٌ للكبارِ فما ذَنبُ الصِّغارِ؟ اتَّقوا اللهَ في الطفلِ، إنْ لم تَتَّقوا اللهَ فينا.

تبددَ صوتُهُ في فضاءٍ مُظلمٍ لايُرى غيرَ حُمرةِ الدِّماءِ , استشفقَ أَحدهم على ذاكَ الرضيعِ الذي يحتضرُ عطشًا؟

تناثرتْ هَمهَمَاتُ القومِ ,تَعلَّقَ بعضُهم بأَهدابِ الإنسانية, تَساءلوا :ما علاقةُ الطفلِ ببيعَةِ يَزيد , ماذا يضيرُنا إنْ سَقَيناهُ؟

انبَرَى حَرمَلَةُ بنُ كَاهِلٍ الأَسَديُّ , سَدَّدَ لهُ سهماً , ضَحِكَ مُفتَخِراً بينَ أَصحابهِ وهو يلفظُ : خُذْ هذا فَاسْقِهِ .

اختَرَقَ السَّهمُ رَقبةَ الملاكِ الصَّغيرِ، تفجَّرَ نبعُ الدَّمِ الطاهرِ، رَفرَفَ كفَراشةٍ بَجَناحَيها، انحَنَى الرَّضيعُ رافعاً رأسَهَ لخالِقِه .

نظرَ إليه الحسينُ, رفعَ يديه المملوءتينِ من الدَّمِ الطاهرِ رَمَى بهِ نحوَ السَّماءِ , لم تَسقطْ قطرةٌ على الأَرضِ , نَاجى رَبَّه : هَوِّنْ مَا نَزَلَ بِي إنَّهُ بعينِ اللهِ تَعَالى , اللَّهم لا يَكُن عليك أَهْوَنُ مِن فَصِيلِ نَاقةِ صَالح ، الهي إنْ كنتَ حَبَستَ عنَّا النَّصرَ فَاجعلهُ لمَا هو خَيرٌ منهُ

,وانتَقِمْ من الظَّالمينَ ,واجعَلْ ما حَلَّ بنا في العَاجلِ ذَخيرةً في الآجلِ , اللَّهم أَنتَ الشَّاهدُ على قومٍ قَتَلوا أَشبَهَ الناسِ برسولِكَ محمَّدٍ .

نزلَ الإمامُ الحسينُ من جَوادهِ وحَفَرَ لطفلِهِ بجفنِ سَيفِهِ حُفرة ودَفَنَهُ مُرَمَّلاً بدمائِهِ الزَّكيَّةِ .

****

*الجولة الأخيرة (مصرع الحسين)

اختارته المقادير لعبء يهد الجبال, هو له كفء وبه جدير !

وقف وحيداً أمام أعدائه, الأهل والأصحاب عانقوا الشهادة ورحلت أرواحهم الطاهرة إلى عليين .هل أوهنت عزيمته مصارعهم؟

وقف ثابت الجنان, غير مكترث بما يعانيه من ألم العطش ونزيف الدماء, أنه صمود أولي العزم

يتحدث معسكر ابن زياد مع بعضهم البعض: أنظروا مشرق الوجه كيف لايبالي بالموت ؟!

رابط الجأش, وقف المكرهين من جيش ابن زياد على تل يدعون للأمام: اللهم أنزل عليه نصرك, سمعهم ابن سعد, أنكر قولهم قائلا: يا أعداء الله, ألا تنزلون فتنصرونه!

أهتزت نفس ابن سعد , كثرة خسائر من جيشه, تقلبات في نفوس الجند, راح يصرخ: هذا ابن الأنزع البطين ,هذا ابن قتال العرب, احملوا عليه من كل جانب. أمرهم برمي النبال صوب الحسين .

ألح العطش على الإمام , حمل إلى الفرات, فر من حراسته الأعداء, أستولى على الماء, أغترف غرفه ليروي ظمأه القاتل, ناداه من العدو: أتلتذ بالماء وقد هتكت حرمك !

رمى الماء من يديه , أسرع إلى الخيمة , وصل رأها سالمة, مكيده!

توسط الحسين جيش العدو , شد عليهم يضربهم بسيفه, هجموا على خيمه, صاح بهم: يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين, وكنتم لا تخافون المعاد , فكونوا أحراراً في دنياكم وارجعوا إلى أحسابكم أن كنتم عرباً كما تزعمون.

نطق شمر بن ذي الجوشن : ما تقول يا ابن فاطمة؟

رد الإمام: أنا الذي أقاتلكم, والنساء ليس عليهن جناح, فأمنعوا عنانكم من التعرض لحرمي مادمت حيا.

أمر الشمر جنوده يوسعونه ضرباً بالسيوف, وطعنا بالرماح !

طلب الحسين من أهل بيته ثوبا لا يرغب به أحد, أتوه بسروال , لبسه تحت ثيابه .

ودع عياله الوداع الأخيرقائلاً: استعدوا للبلاء , واعلموا أن الله تعالى حاميكم وحافظكم , وسينجيكم من شر الأعداء, ويجعل عاقبة أمركم إلى خير , ويعذب عدوكم بأنواع العذاب , ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة فلاتشكوا ولاتقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم .

ذابت أسى أرواح بنات الرسول، سرت الرعدة بأوصالهن.

نادى عمر بن سعد: اهجموا عليه مادام مشغولا بنفسه وحرمه, فوالله أن فرغ لكم لاتمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم .

تهافتت السهام كالصاعقة في المطر بين المخيم , خرج الحسين كالليث الغضبان, حصد من رؤسهم بسيفه , السهام تأخذه يمينا وشمالا , فأصيب بفمه, وأخر أصاب جبهته الطاهرة , رفع يديه بالدعاء :

اللهم أنك ترى ما أنا فيه من عبادك هؤلاء العصاة ,اللهم أحصهم عددا , واقتلهم بددا , ولاتذر على وجه الأرض منهم أحداً , ولاتغفر لهم أبدا.

صاح بالجيش: ياأمة السوء بئس ما خلفتم محمداً في عترته , أما أنكم لاتقتلون رجلاً بعدي فتهابون قتله, بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي , وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بالشهادة, ثم ينتقم لي منكم من حيث لاتشعرون.

أنهى كلامه فرماه خبيث بسهم له ثلاث شعب ,أصاب قلبه الشريف , شخص بصره في السماء قائلا: بسم الله وبالله , وعلى ملة رسول الله ,إلهي أنك تعلم أنهم يقتلون رجلا ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره .

أخرج السهم من قفاه , نزل الدم كالميزاب , تلقاه بيده امتلأتا, رمى به نحو السماء , نطق : هون ما نزل بي أنه بعين الله .

أخذ بقايا دمه , لطخ وجهه ولحيته , حرك شفتيه: هكذا أكون حتى القي الله وجدي رسول الله وأنا مخضب بدمي .

هجم عليه العدو , مثلوا بجثته ضربا بالسهام , طعنا بالرماح , قطعوا يساره , شمر بن ذي الجوش ناداهم : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل !

خرجت أخته العقيلة تردد: ليت السماء أطبقت على الأرض, وليت الجبال تدكدكت على السهل .

أقبل عليها ابن سعد , صاحت به : أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر !

أطرق برأسه خزيا وندامة, أشاح بوجهه عنها ودموعه تسيل .

تقدم شمر رجس البشرية كلها, أحتز راسه الشريف, والابتسامة على شفتي الحسين , أحتفظ بالرأس ليهديه إلى ابن زياد , ويزيد .

*بعد الشهادة

تَسَابَقَ الجُندُ لنَهبِ خيامِ بَناتِ الرَّسولِ , تَرقرَقتِ الدُّموعُ في عيونِهِنَّ , خَرجْنَ يَندبْنَ الأحبَّةَ حافياتٍ .

رأَتْ امرأَةٌ من بَكرِ بنِ وائلٍ كانت معَ زوجها في جَيشِ عُمرِ بنِ سَعدٍ اجتماعَ العدوِّ على نساءِ الحُسينِ , يَسلبونَهُنَّ , حَمَلَتْ سيفاً , هَرولَتْ نحوَ الفسطاطِ , صَرَخَتْ : ياآلَ بَكرِ بنِ وائلٍ أَتُسلَبُ بناتُ رسولِ اللهِ , لا حُكمَ إلَّا لله, يالثاراتِ رسولِ اللهِ , شّدَّ عليها زوجُها وأَرجَعَها معه.

أَوعَزَت القيادةُ لجندِها بحرقِ خيامِ آلِ النَّبيِّ ,حَمَلوا أَقبسَةً من النارِ , وينادونَ: أحرقوا بيوتَ الظَّالمين!

التهبتْ النارُ بالخيام , فَرَرنَ بناتُ الرسالةِ من خِباءٍ إلى خِباء ,علا صُراخُ الأَطفالِ , تعلَّقَ بعضُهم بأَذيالِ العَقيلةِ .

هجمَ الفُجَّارُ على زينِ العَابدينَ , أَراد الأَبرصُ شِمْرٌ قتلَهُ , نهاهُ حميدُ بنُ مسلم قائلاً: سُبحَانَ اللهِ أَتقتُلُ الصِّبيانَ ,إنَّما هو مريض.

لم يعن الخبيثُ , رامَ قتلَ الإمامِ , سارعتِ الحوراءُ نحوهُ, تَعلَّقتْ بهِ قائلةً: لايُقتَلُ حتى أُقتَلَ دونَهُ.

زينُ العابدين مَريضٌ , أَنقذتهُ عمَّتُهُ زينبُ بشِقِّ النَّفسِ , أَهو مَن بَقِي من سلالة أَبي الشُّهداء ؟

بَكَيْنَ على حَرَمِ جدِّهِنَّ في المدينة , فَكفكَفَ دموعَهُنَّ الحسينُ , ياتُرى يوم خروجهِنَّ من كربلاء مَنْ يُكَفكِفُ تلك الدُّموعَ ؟

أَوغلَ الليلُ, اتَّسعَتْ عيني زينب مندهشَةً ترافقها زَفَراتُ البُكاءِ ,شَهقَاتُ النَّحيبِ , تسلَّحَتْ بالصَّبرِ ,جَمَعَت العيالَ بالبيداءِ الموحشَةِ , تُسَلِّيهم تُصبِّرُهُم على تَحمُّلِ الرَّزايا ,جلستْ منتصفَ الليلِ أَدَّتْ صلاة الشُّكرِ لله تعالى على ما حَلَّ بها وبأَهلها.

ندبتْ أَخاها , نَظرتْ جثمانَهُ مقطَّعَ الأَعضاءِ , لم تتمالك نفسَها صَاحَتْ بصوتٍ تذوبُ منه القلوب:

يا محمَّداهُ , هذا حسينٌ بالعراءِ , مُرَمَّلٌ بالدِّماءِ , مُقَطَّعُ الأَعضاءِ, وبَناتكَ سبايا, وذُريَّتكَ مُقَتَّلَةٌ.

****

.....

* سالت دما في المدينة !

يخفق قلبها بشدة تراقب وديعة الرسول كل يوم وتقول: إن يوماً تتحولين دماً ليوم عظيم.

تغمض عينيها وتحمد الله أن القارورة لم يتغيّر لونها.

عاد ألق نصف قرن يحاكي ذاكرتها, حديث زوجها الذي لا ينطق عن الهوى, تتوجس خيفة وتنبجس عيناها بالدموع فتتهالك قواها, ارتسمت في مخيلتها النوائب والمصائب، فقد الرسول

وبضعته وبعلها وسبطه, لتردد: سيعود ليل الجاهلية مرة أخرى بأقنعة أموية, تتمنى ألا يأتي هذا اليوم!

هاجت لوعة الحزن والأسى, نامت رأت الرسول في منامها: مكتئبا وعليه ثياب مغبرة معفرة حدثها:

إني قادم من كربلاء ومن مدفن الشهداء.

نهضت ترتعش مرتعبة صباح العاشر من محرم, سارعت لرؤية التراب في القارورة تحول أحمر كشمس تغرب باحمرار .

أجهشت بالبكاء والنحيب, أعلنت النبأ في المدينة.

الفصل السادس
(سبي آل الحسين)

*صَباح الحادي عشرَ من مُحرَّم

حَمَلوا عَقَائلَ النُّبوةِ على جِمَالٍ بغيرِ وطاءٍ, رُبِطوا بالحِبَالِ عُزِفَتْ أَبواقُ الجَيشِ ,خَفَقَتْ راياتُهم .

سَاقَ عُمَرُ بنُ سعدٍ مَوكبَ ودائع النَّبيِّ كما يُساقُ سَبي التُّركِ والرُّومِ .

أَقسَمْنَ عليهم بصَوتٍ حَزينٍ : بِحَقِّ اللهِ إلا ما مَررتم بنا على مَصرعِ الحُسينِ .

نَظَرت النُّسوةُ إلى القَتلى ,أَشلاءً مبعثرَةً ودماءً, صرخْنَ ضَرَبْنَ وجههُنَّ , ندبتْ عقيلةُ الهاشميينَ الحسينَ بصوتٍ حَزينٍ وقلبٍ كئيب :

يا مُحمَّداهُ , صلَّى عليكَ ملائكةُ السَّماء .

هذا حسينٌ مُرمَّلٌ بالدِّماء، مُقَطَّعُ الأَعضاءِ, مَسْلُوبَ العِمامَةِ وَالرِّداءِ ، وبَناتُك سبايا، إلى الله المُشتَكَى ,وإلى محمَّدٍ المُصطَفَى , وإلى عليٍّ المُرتَضَى ,وإلى فاطمةَ الزَّهراءِ وإلى حمزةِ سيِّدِ الشُّهدَاءِ .

يا مُحمَّداهُ ,هذا حُسينٌ بالعَراءِ ,مَحزوزُ الرأسِ مِنَ القَفَا

بِأَبِي مَنْ أَضْحَى معَسْكَرُهُ في يَوْمِ الاثْنَيْنِ نَهْبًا. بِأَبِي مَنْ فُسْطاطُهُ مُقَطَّعُ العُرَى. بِأَبِي مَنْ لا غائِبٌ فَيُرْتَجَى، وَلا جَرِيحٌ فَيُداوَى. بِأَبِي مَنْ نَفْسِي لَهُ الفِداءُ.

فَأَبْكَتْ العَدوَّ والسَّبايا , سَأَلَتْها سَكِينَةُ : لمَنْ تُخَاطبينَ ؟

ـ أُخَاطِبُ أَباكِ الحُسينَ .

أَلقَتْ بنَفسِها مِنَ المَحمَلِ على جَسدِ أَبيها , اعتَنَقَتْ جثَّتَهُ .

خَاطَبَ ابنُ سَعدٍ جِندَهُ : نحوُّها عَنِ جَسَدِ أَبيها . سَحَبوها , نَهَضَتْ بِسيلِ الدَّمعِ على الخَدَّينِ .

****

*حامل الرَّأس

جنَّ الليلُ, ذَهَبَ حَاملُ الرأسِ لمنزلِهِ , وضعَ الرأسَ بمكانٍ ما, دَخَلَ فراشَهُ , نَطَقَ في أُذُن امرأتِهِ : جئتُكِ بفَتَى الدَّهر , هذا رأسُ الحسينِ بينَ يديكِ في الدار !

صَاحتْ مرتاعة :

ـ ويلك! تأتي الناسُ بالذَّهبِ والفضَّةِ , وجئتَ برأسِ ابنِ بنتِ رسولِ الله ؟ واللهِ لا يجمَعُنِي وإياكَ بيتٌ أبداً!

انطلقتْ خارج الدارِ تعدو مذعورةً .

****

* دخول السَّبايا الكوفة

وقفتْ الجموعُ المحتشدةُ تشهد عقائل النبوة , في الطريق إلى عبيد الله بن زياد .

سمعتْ آهةً من هنا , شهقةً من هناكَ , كلمةَ رثاءٍ وعزاءٍ , بعضَ نسوةِ الكوفةِ يَندبْنَ مُتَهتِّكاتِ الجيوبِ, بكى الباكونَ لما حلَّ بالمُخَدَّراتِ .

تنظرُ زينبُ لهم , لم تطقْ أَن ترى الذين خذلوا أَباها وأَخاها الحسنَ , وقتلوا ابنَ عمِّها مسلمَ بنَ عقيل , وخانوا الحسينَ .

لعلها حدَّثتْ نفسَها , أَيَبكونَ ؟ وهم ضحاياهم, يرثونَ بنات الرَّسولِ وما انتهكَ حرمتهنَّ سِواهُم !

أَبصرتْهم , أَومأَت, أسْكُتُوا .

طأطأوا رؤوسَهم خزياً وندامةً , ارتدّتِ الأَنفاسُ ، وسكنتِ الأَجراسُ ,خاطبَتهُم : الحمد لله والصلاة على أبي : محمّد وآله الطيّبين الأخيار.

أَمَّا بَعْدُ:

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ يَا أَهْلَ الْخَتْلِ وَالْغَدْرِ وَالْخَذْلِ أَلَا فَلَا رَقَأَتِ الْعَبْرَةُ وَلَا هَدَأَتِ الزَّفْرَةُ , إِنَّمَا

مَثَلكُمْ كمَثَلِ التي نَقَضَتْ غَزلَهَا مِن بَعدِ قوَّةٍ أَنكَاثاً ، تَتّخذونَ أَيمَانِكُمْ دَخَلاً بَينِكُمْ.

أَلَا هَلْ فيكُمْ إلّا الصَّلِفُ، والعَجِبُ، والصَّدرُ الشَّنِفُ ؟ ومَلْقُ الإمَاءِ ؟ أَو غَمْزُ الأعْدَاء، أو كمَرعَى على دمنةٍ، أو كفِضَّةٍ على مَلحُودةٍ، أَلا سَاءَ ما قَدَّمَتْ لكمْ أَنفسُكُم أَنْ سَخَطَ اللهُ عليكم وفي العَذابِ أَنتمْ خَالدونَ.

أَتَبكونَ ؟ وتَنتَحِبونَ ؟

إي واللهِ ، فَابكوا كثيراً واضحَكُوا قليلاً.

فلقد ذَهَبتُم بعَارهَا وشَنَارهَا ، ولن تَرحَضُوها بِغسلٍ بعدَها أَبَداً.

وأَنَّى ترحَضُونَ قَتلَ سَليلِ خَاتمِ النُّبوّةِ ؟ ومَعدنِ الرِّسالةِ ، وسَيِّدِ شبابِ أَهلِ الجَنَّةِ ، ومَلاذِ خِيرتِكِم ، ومَفزَعِ نَازلَتِكُم ، ومَنَارِ حُجَّتِكُم ، ومَدَرَّةِ سُنَّتِكِم ؟؟

أَلا ساءَ ما تَزرونَ ، وبُعداً لكم وسُحقاً ، فلقد خابَ السَّعي ، وتَبَّت الأَيدي ، وخَسِرَتِ الصَّفقَةُ ، وبُؤتُم بغَضَبٍ من اللهِ ، وضُرِبَتْ عليكم الذِّلَّةُ والمَسكَنَةُ.

وَيلَكُمْ يا أَهلَ الكوفَةِ !

أَتدرونَ أَيّ كَبدٍ لرسولِ الله فَرَيتُمْ ؟!

وأَيّ كَريمَةٍ له أَبرزتُمْ ؟!

وأَيّ دَمٍ لهُ سَفَكتُمْ ؟!

وأَيّ حُرمةٍ له هَتَكتُمْ ؟!

لقد جِئتُمْ بها صَلعَاءَ عَنقاءَ سَوداءَ فَقمَاءَ ، خَرقَاءَ شَوهاءَ ، كطِلاعِ الأَرضِ ومِلءِ السَّمَاءِ.

أَفَعَجِبتُمْ أَن مَطَرَتِ السَّماءُ دَماً ، ولَعَذَابُ الآخرةِ أَخزَى ، وأَنتُمْ لا تُنصَرون.

فلا يَستَخفّنكم المُهَل ، فإنَّه لا يَحفِزُه البِدار ، ولا يَخافُ فَوتَ الثار ، وإنّ ربّكم لبالمرصَادِ .

خَطَبَتْ بعدها فاطمةُ وأُمُّ كلثوم , ضَجَّ الناسُ بالبكاءِ , ذُهِلوا , سَقَطَ ما في أَيديهم من هَولِ تلك المِحنَةِ الدَّهماءِ .

أَومأ عليٌّ بنُ الحسينِ للناسِ أن اسكُتُوا , خَاطَبَهم: أَيُّها الناسُ! مَنْ عَرَفَني فقد عَرَفَنِي، ومَنْ لم يَعرفني فأَنا عليٌّ بنُ الحُسينِ بنِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ (عليهِ السلام)، أ نتُهِكَتْ حُرمَتُهُ، وَسُلِبَتْ نِعمَتُهُ، وانْتُهِبَ مالُهُ، وَسُبِيَ عِيالُهُ! أَنا ابنُ المَذبوحِ بِشَطِّ الفُراتِ، مِنْ غَيرِ ذَحْلٍ وَلا تِرَاتٍ.! أنا ابنُ مَن قُتلِ صَبراً، فَكَفَى بذلكَ فَخْراً!

أَيُّهَا النَّاسُ! نَاشَدْتُكُمْ بِاللهِ! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كَتَبْتُمْ إِلَى أَبِي وَخَدَعْتُمُوهُ؟ وَأَعْطَيتُمُوهُ مِنْ أَنفُسِكُمْ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ وَالبَيْعَةَ، وَقَاتَلتُمُوهُ وَخَذَلتُمُوهُ؟

فَتَبّاً لِمَا قَدَّمتُمْ لأَنفُسِكُمْ، وَسَوْأَةً لِرَأْيِكُمْ.!

بِأَيَّةِ عَيْنٍ تَنظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَليهِ وآلِهِ) إِذْ يَقُولُ لَكُمْ: قَتَلْتُمْ عِترَتِي، وَانْتَهَكْتُمْ حُرْمَتِي، فَلَستُمْ مِن أُمَّتِي؟!

أَجابَهُ الناسُ بالبُكَاءِ والنَّحيبِ. يقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ: هَلَكتُمْ وما تَعلَمونَ!

لَوَتْ زينبُ رأسَهَا عَنهُم , مَضَتْ قدماً حيثُ أُريدَ بِهَا , بَلَغَتْ مَنزلَ أَبيها بجوارِ دَارِ الإمَارَةِ ,أَحسَّت شَجاً في حَلقِها!

تذكَّرتْ كلَّ قطعَةٍ في ذلك المَنزلِ ,تَرنَّحَتِ الدُّموعُ في مُقلَتَيها ,أَبَتِ الذِّلة عليها , وَضَعَتْ يُمنَاها على ماتَبقَّى من قلبِها خَشيَةَ أَن يَتَصَدَّعَ , اجتازتِ السَّاحَةَ الكبرى ,أَشرَفَتْ على قاعةِ مَجلسِ ابنِ زيادٍ , رَأَتهُ جالساً , تُحَدِّثُ نفسَها , هيهاتَ تَراني يَتيمَةً ثَكلَى !

تقدَّمتْ بمهَابَةٍ واجلالٍ , تَحفُّها إماؤها , أَخَذَتْ مجلسَها بلا بالٍ بالطاغية .

جلستْ وعَينَاها باديةَ التَّرفُّعِ , قبلَ أَنْ يُؤذَنَ لها بالجلوس, سَأَلَ : مَنْ تكون؟

صَمْتٌ !!!

أَعادَ السؤالَ ثلاثَ مَراتٍ , لاتُجيبُ احتقاراَ له واستِصغَاراً لشَأنِهِ , أَجابَهُ أَحدُ حُضُورِ مجلسِهِ : هذهِ زينبُ بنتِ فاطمَةَ .

غاظَهُ ما كانَ منها , حَرَّكَ لِسَانَهُ: الحَمْدُ لله الَّذِي فَضَحَكُمْ وَأَكْذَبَ أُحْدُوثَتَكُمْ.

نظرتْ إليه باحتِقَارٍ ,رَدَّتْ عليهِ : الحَمْدُ لله الَّذِي أَكرَمَنَا بِنَبِيِّهِ وآلِهِ , وطَهَّرَنَا مِنَ الرِّجسِ تَطهِيْراً, إنَّما يُفضَحُ الفَاسِقُ ويَكْذبُ الفَاجِرُ, وهو غَيرُنَا والحَمْدُ للهِ .

سَأَلها باستِفزَازٍ : كيفَ رَأَيتِ صُنعَ اللهِ بأَهلِ بَيتِكِ؟

أَجَابَتْ ومايَزالُ تَرَفُّعُها:

ما رأيتُ إلَّا جَمِيلاً، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ، فَبَرَزُوا إلى مَضَاجِعِهم، وَسَيَجمَعُ الله بَينَكَ وَبَينَهُمْ فَتُحَاجُّ وَتُخَاصَمُ، فَانْظُرْ لِـمَنِ الْفَلْجُ يَوْمَئِذٍ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يابنَ مَرْجَانَةَ.

صَغُرَ الطَّاغيةُ واضْمَحَلَّ , هَمَسَ في أُذُنِهِ عَمْرُو بنُ حُرَيْث: إنَّهَا امرأَةٌ، وَالمرأَةُ لَا تُؤَاخَذُ بِشَيءٍ مِنْ مَنْطِقِهَا. ، ولا تُذَمُّ عَلى خِطَابِهَا.

خَاطَبَها بتَشَفٍّ :

لَقَدْ شَفَى الله قَلبِي مِنْ طَاغِيَتِكِ الحُسينِ وَالعُصَاةِ المَرَدَةِ مِنْ أَهلِ بَيتِكِ.

رَدَّتْ بِعَبرَتِها قَائلَةً: لَعَمْرِي، لَقَد قَتَلْتَ كَهْلِي، وَقَطَعْتَ فَرعِي، وَاجْتَثَثْتَ أَصْلِي، فَإِنْ كَانَ هَذَا شِفَاءَكَ فَقَدِ اشْتَفَيْتَ.

سَخِرَ مِنهَا بغَيظٍ قَائلاً: هَذِهِ سَجَّاعَةٌ، وَلَعَمْرِي لَقَد كَانَ أَبُوكِ سَجَّاعاً شَاعِراً.

نَطَقَتْ في رَزَانَةٍ صَارِمَةٍ:

مَا لِلْمَرْأَةِ وَالسَّجَاعَةَ ؟ إنَّ لِي عَنِ السَّجَاعَةِ لَشُغْلاً.

استدارَ بِبَصرِهِ , تَأَمَّلَ هُنَيئَةً بِوَجهِ الأَسرَى ,أَبصرَ زَينَ العَابِدِينَ , أَنكَرَ بَقاءَهُ حَيّاً , سأَلَهُ:

ما أسْمُكَ؟

أَجَابَهُ : عَلِّيُ بنُ الحُسينِ .

تَعَجَّبَ ابنُ زيادٍ , تَسَاءَلَ:

ـ ولكنْ ,أَوَلَم يَقتُلِ اللهُ علَيَّ بنَ الحُسينِ؟

سَكَتَ الفَتَى !

عَادَ الطَّاغيةُ يَستَحِثُّهُ: مَالَكَ لا تَتَكَلَّم ؟

رَدَّ عليهِ الإمَامُ: قَد كَانَ لِي أَخٌ يُسَمَّى عَلِيّاً قَتَلَهُ النَّاسُ.

صَرَخَ ابنُ زِيادٍ : بَلْ اللهُ قَتَلَهُ.

أَمسَكَ زَينُ العَابدينَ عَنِ الكَلامِ, استَحثَّهُ ابنُ زيادٍ مَرَّةٍ أُخرى , فَأَجابَهُ : اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حينَ مَوتِها.

صاحَ الطاغيَةُ :

وَيكَ جَرأَةٌ لجَوابِي؟ وفَيكَ بَقيَّةٌ لِلرَّدِ عَلَيَّ؟

التَفَتَ لِرِجَالِهِ , أَمَرَهُمْ, اذهَبُوا فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ!

اعتَنَقَتْهُ عَمَّتُهُ زينبُ , خَاطَبَتْ ابنَ زيادٍ: حَسبُكَ مِنْ دِمَائنَا! واللهِ لا أُفَارِقُهُ، فإنْ قَتَلتَهُ فَاقتُلنِي مَعَهُ!

تَأَمَّلَ ابنُ زيادٍ بُرهَةً , نَطَقَ : عَجَباً للرَّحِمِ! واللهِ إنِّي لأَظنُّها وَدَّتْ أَنِّي قَتلَتُها مَعَهُ! دَعُوهُ!

****

* الرَّبابُ مع رأس الحسين

دَعَا السَّبايا ابنُ زيادٍ منَ السِّجنِ , دَخَلنَ عليهِ , شَاهَدنَ الرأَسَ الشَّريفَ تَتَصَاعَدُ أَنوارُهُ وأَساريرهُ إلى عَنَانِ السَّماءِ , هَروَلتِ الرَّبابُ , وَقَعَتْ عليهِ تُقَبِّلُهُ .

سارعتْ أُمُّ كلثومٍ لِرَباب , خَاطَبَها الطَّاغيةُ : الحَمْدُ لله الذي قَتَلَ رجَالَكُم! فَكيفَ تَرَونَ ما فَعَلَ بِكُم؟

رَدَّتْ عليهِ بنتُ عَليٍّ : أَي ابن زيادٍ! لِئِنْ قَرَّتْ عَينُكَ بقَتلِ الحُسينِ فَطَالَمَا قَرَّتْ عَينُ جَدِّهِ بهِ، وكانَ يُقَبِّلُهُ ويَلثِمُ شَفَتَيهِ ويَضَعَهُ على عَاتِقِهِ! يا ابنَ زَيادٍ أَعدَّ لِجَدِّهِ جَواباً فإنَّهُ خَصمُكَ غَداً!

****

* طواف برأس الحسين

أُذِّنَ بالناسِ أَذَاناً عاماً , حَضَروا , يَرونَ الرَّأسَ بينَ يَدَي ابنِ زيادٍ , يَنظُرُ إليهِ ,يَبتَسِمُ , يَضربُهُ بقَضيبٍ بينَ ثَنايَاه!

أَمَرَ الطَّاغيةُ أَنْ يَطوفَ جندُهُ برأسِ الحُسينِ في أَزقَّةِ الكوفَةِ مَحمولً على خَشَبَةٍ كَصَلْبِ عيسى بنِ مَريمَ . جَعَلوا الأَغلالَ في يَدَي عليِّ بنِ الحُسينِ ورقَبَتِهِ , سِيْقَ بالرَّكبِ في الكوفَةِ !

****

* انتفاضة عبدِ الله بنِ عَفيفٍ الأَزدي مع الطَّاغية

صدرتْ أَوامرُ ابنِ زيادٍ بنَصبِ رأسِ الحُسينِ على بَابِ دارِ الأَمارةِ , طَلَبِ من رجالِهِ جَمعَ الناسِ على بابِ مَسجدِ الكوفَةِ , اجتمعوا , خرجَ إليهم وصَعَدَ المِنبرَ قائلاً: الحَمْدُ للهِ الذي أَظهَرَ الحَقَّ وأَهلَه! ونَصرَ أَميرَ المؤمِنينَ وأَشيَاعَهُ! وقَتَلَ اَلكَذَّابَ ابنَ اَلْكَذَّاب!

وَثَبَ إليهِ عبدُ اللهِ بنُ عَفيفٍ الأَزديُّ صَرَخَ بِوَجهِهِ: يا يَا اِبْنَ مَرْجَانَةَ إِنَّ اَلْكَذَّابَ ابنَ اَلْكَذَّاب أَنْتَ أَبُوكَ ومَنِ اِسْتَعْمَلَكَ و أَبُوهُ يَا عَدُوَّ اَللَّهِ أَتَقْتُلُونَ أَبنَاءَ النَّبِيِّينَ وَ تَتَكَلَّمُونَ بهَذَا اَلكَلامِ علَى مَنَابِرِ اَلْمُؤْمِنِينَ ؟!

اشتَاطَ الطَّاغِيةُ غَضَباً , سَأَلَ : مَنِ المُتَكَلِّمُ؟

أجابه بكل ثقة:

أَنَا المُتَكَلِّمُ يَا عَدُوَّ اَللهِ تَقْتُلُ الذُّرِّيَّةَ الطَّاهِرَةَ الَّتِي قَدْ أَذْهَبَ اَللهُ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى دِينِ الإِسلامِ ؟ واغَوثَاهُ! أَينَ أَوْلاَدُ المُهَاجِرِينَ وَ الأَنصَارِ لِيَنْتَقِمُوا مِنْ طَاغِيَتِكَ اللَّعِينِ ابنِ اللَّعِينِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ رَبِّ العَالمِينَ ؟!

انتَفَخَتْ أَوداجُ ابنِ زيادٍ , أَمَرَ : عَلَيَّ بهِ!
شَدَّ عليهِ الجَلاوزَةُ , نَادَى بِشِعَارِ الأَزدِ: يا مَبْرُورُ.
سَمِعَهُ عبدُ الرَّحمَنِ ابنُ مُخنِف الأَزديِّ ، هَمْهَمَ: وَيحَ نَفسكَ! أَهلَكتَها وأَهلَكْتَ قَومَكَ!
تَجَمَّعَ سبعمائة مُقاتلٍ منَ الأزدِ، وَثَبوا إليهِ فِتيةٌ منهم انتَزَعوهُ ,انطَلَقوا بهِ إلى مَنزِلِهِ.
رَجَعَ الطَّاغيةُ إلى القَصرِ , كَلَّمَ رَجالَهُ : اذهبوا إلى هذا الأَعمَى الذي أَعمَى اللهُ قلبَهُ كما أَعمَى عَينيهِ، فَأتونِي به!
رأتْ عَشيرتُهُ تَحرُّكَهُم الى مَنزلِ عبد الله الأَزديِّ , اجتمعوا ,انضَمَّتْ إليهم قَبَائلٌ منَ اليَمَنِ .
بلغَ ابنَ زيادٍ خَبرُهُم , فَجَمَعَ قَبَائِلَ مُضَرَ وَ ضَمَّهُمْ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَشْعَثِ وَ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ القَومِ
, فَاقْتَتَلُوا ا قتالاً عنيفاً , قُتِلَتْ جماعَةٌ منَ العَرَبِ , وَصَلوا دارَ عبدِ اللهِ بنِ عَفيفٍ، كَسَروا البابَ ,اقتَحَموا عليهِ.
فَصَاحَتْ ابنَتُهُ أَتَاكَ القَوْمُ مِنْ حَيثُ تَحْذَرُ!
فَقَالَ لا عَلَيْكِ نَاوِلِينِي سَيْفِي .
وَضَعَتْ سَيفَهُ في قَبضَةِ يَدِهِ اليُمنَى , ذَبَّ عَنْ نَفْسِهِ, يَسمَعُ صَوتَ ابنَتِهِ : لَيتني كنتُ رجلاً فأقاتل بين يديك هؤلاء الفجرة.

دارَ عليهِ الجُندُ أَحاطوا بهِ مِن جَميعِ الجوَانبِ, ظَلَّ يُقاتِلُ ويَرتَجزُ:

أُقْسمُ لَوْ يُفْسَحُ لِي عَنْ بَصَري ضَاقَ عَلَيْكُمْ مَوْردي وَ مَصْدَري

تكاثروا حَولَهُ, صَرَخَتْ ابنَتُهُ : وَاذِلَّاهُ ! يُحَاطُ بِأَبي وليسَ لهُ نَاصِرٌ يَستَعينُ بِهِ!

أَلقَوا القَبضَ عليهِ , سَاقوهُ إلى الطَّاغيةِ , صَرَخَ بوجهِهِ : الحَمْدُ للهِ الذي أَخزَاكَ!

أَجابَهُ الأَزديُّ : يا عَدَوَّ اللهِ! بمَاذا أَخزَانِي! واللهِ لو يُكشَفُ عَن بَصَري.

أَردَفَ الطَّاغيةُ : ماذا تَقولُ في عُثمانَ؟

ـ كلمه مستفزا إياه:

فَقَالَ يَا عَبدَ بَنِي عِلاَجٍ يَا ابنَ مَرْجَانَةَ و شَتَمَهُ مَا أَنْتَ وعُثْمَانَ إِنْ أَسَاءَ أَمْ أَحْسَنَ وأَصْلَحَ أَمْ أَفْسَدَ ؟

وَ اَللهُ تَعَالَى وَلِيُّ خَلْقِهِ يَقْضِي بينَهم بِالعَدلِ والحَقِّ ولَكِنْ سَلْنِي عَنْ أَبِيكَ وعَنْكَ وعَنْ يَزِيدَ وأَبِيهِ!

تَلعَثَمَ ابنُ زيادٍ قائلاً : لاسَأَلْتُكَ عَنْ شَيءٍ أَو تَذُوقَ المَوْتَ!

نَطَقَ بنُ عَفيفٍ : الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ، كُنْتُ أَسْأَلُ اَللهَ رَبِّي أَنْ يَرْزُقَنِيَ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ تَلِدَكَ أُمُّكَ وسَأَلْتُ اَللهَ أَنْ يَجعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْ أَلْعَنِ خَلْقِهِ وأَبْغَضِهِمْ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا كُفَّ بَصَرِي يَئِسْتُ مِنَ الشَّهَادَةِ

والآنَ الحَمْدُ للهِ اَلَّذِي رَزَقَنِيهَا بَعْدَ اليَأْسِ مِنْهَا وعَرَّفَنِي الإِجَابَةَ مِنْهُ فِي قَدِيمِ دُعَائِي.

نَادَى الطَّاغيةُ جَلاوزَتَهُ , أَمَرَهُمْ: اِضْرِبُوا عُنُقَهُ!

صَلَبُوهُ!!!!

الفصل السابع
(السبايا إلى دمشق ,فالمدينة)

*(السبايا في دمشق)

سِيرَ برأسِ الحُسينِ ورؤوسِ الشُّهداءِ , وسِيقَ بالأسَارى منَ العِترةِ النَّبويةِ مُوثَقَةً بالحِبالِ .

السَّبايا مَحمولاتٌ على أَقتابِ الجِمَالِ , مَنظرٌ تَقشَعَرُّ له الأَبدانُ !

سارتْ قافلةُ الأَسرى , مِحنَةٌ فادحَةٌ أَلجَمَتْ لسانَي زينِ العابدينَ والحَوراء زينب .

أَطرقَ الإمامُ يُحدِّقُ في الأَغلال !!.

وتَرمقُ العقيلةُ رؤوسَ الشُّهداءِ من أَهل بيتها واجمةً صامتةً صابرةً!

بلغت القافلةُ دمشقَ بأَربعةِ فَراسخ , رأَى أَهلُ البلدةِ ينشرونَ النِّثارَ فَرَحاً وسروراً , مَنَعوا القافلةَ من السَّيرِ ثلاثةَ أَيام , تَزيَّنتِ الشَّامُ بالحُلِيِّ والذَّهبِ والفضَّةِ , دُقَّتِ الطبولُ والدُّفوفُ, حُشِّدَ شعبُها صغيراً وكبيراً بحضورِ الحَفلِ , كَحَّلوا العيونَ , خَضَّبوا الأكفَّ , فرحينَ بإبادةِ العِترةِ الطاهرةِ وسَبي حرائرِ النُّبوَّةِ!

عجباً كيفَ لم تمطرِ السَّماءُ دماً , ويَخسِفُ اللهُ الأَرضَ بأَهلها , يُهدَى رأسُ الحسينِ والناسُ يفرحونَ !! مِنْ أَي باب سَيدخلونَ؟؟ !

بـادرَ سـهلٌ إلـى إحـدى بنـاتِ الحسـينِ , يَسـأَلُها : مَـنْ أَنـتِ؟ أَلَـكِ حاجة ؟ فأَنا سَهلُ صاحبُ جدِّك رسولِ اللهِ .

ـ قلْ لصاحبِ هذا الرأسِ أَنْ يُقدِّمهُ أَمامَنا حتَّى ينشغَلَ الناسُ بالنظرِ إليهِ ولا يَنظرونَ إلى حَرَمِ رسولِ الله .

أَسرعَ سهلٌ إلى حاملِ الرأسِ ,أَعطاهُ أَربعةَ مائةِ دَرهم .

أُبْعِدَ الرأسُ عنِ النِّساءِ .

****

*(شيخ شامي مع زين العابدين)

اندفع شيخٌ هَرِمٌ من أَهلِ الشامِ نحو زينِ العابدينَ , رَفَعَ عَقيرتَهُ قائلاً: الحمدُ للّهِ الذي أَهلَككم و أَمكَنَ الأَميرَ منكم

رآهُ الإمامُ مخدوعاً , سأَلَهُ :يا شيخ قرأتَ القرآن؟ .

- بلى .

أَردفَ زينُ العابدين, أَقرأتَ قولَهُ تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى} و قولَهُ تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} و قولَهُ تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى} ؟

ـ بُهِرَ, فَرَدَّ بصوت خافتٍ :نعم قَرأتُ ذلك .

نطَقَ الإمامُ :نحنُ و اللهِ القُربَى في هذه الآيات.

يا شيخُ أَقرأت قولَهُ تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} ؟

ـ اقشَعَرَّ بَدَنُ الشَّيخِ , فأَجابَهُ : بَلَى .

رَنَّ مسامعَهُ زينُ العابدين :نحنُ أهلُ البيتِ الذين خصَّهم الله بالتطهير .

سرتْ رَعدَةٌ في أَوصالِ الشَّيخ , تمنَّى أَن تكونَ الأَرضُ قد وارتهُ و لم يُحَرِّك شَفَتيهِ , سألَ الإمامَ: باللهِ عليكم أَنتم هُم؟

أَقسَمَ الإمامُ : وحقِّ جدِّنا رسولِ الله إنَّا لنَحنُ هُم من غيرِ شَكٍّ .

أَلقى الشَّيخُ بنفسِهِ على الإمامِ , وسعَ يديه تقبيلاً , سالتْ دموعُهُ على سحناتِ وجهه , تكلَّم : أَبرأُ إلى الله مِمَّنْ قتَلَكُم

توسَّلَ إلى زين العابدينَ أَن يمنَحَهُ التوبةَ , يَعفو عنه ,عَفَا عنَهُ .

****

*(حملُ الأسرى إلى يزيد)

انبرَى جلاوزةُ يزيد إلى بناتِ النَّبيِّ والأَطفالِ , رَبَقوهُم بالحِبالِ كما تُربَقُ الأَغنامُ , وضعوا حبلاً في عنقِ الإمام , أَوصلوه بعنقِ الحَوراءِ , وامتدَّ الحبل لأعناق بناتِ الرَّسولِ .

سَاروا بهم , كلَّما قَصَروا عن المَشي أَوسَعوهم ضرباً بالسِّياطِ , أَوقفوهم بينَ يَدَي يزيد .

استَبشَرَ الطاغيةُ بدخولِهِم ورأسُ الحُسينِ بينَ يَدَيهِ , غَمَرتُهُ الفَرحةُ , أَنشدَ :

لَمَـــا بَـــدَتْ تلـــكَ الحُمُـــولُ تلـــكَ الشُّـــمُوسُ علَـــى رُبَى
نعـب الغـراب فَقُلْـت نُـح أَو لا فَلَقَـدْ قَضَـيْتُ مـن النَّـى ديـونى

التفتَ زينُ العابدينَ إلى يزيد , خاطبَهُ : ما ظَنّكَ بجدِّنا رسولِ الله لو يرَانا على هذه الصِّفَةِ؟

تأَلَّمَ مَنْ في مَجلسِ يزيد , تعالَتْ ندباتُ بكائِهِم , تَهافَتَ الطَّاغيةُ منَ المَنظرِ المُفجعِ , حَرَّكَ لسانَهُ : قبَّحَ الله ابنَ مِرجَانَة لو كانَ بينكم و بينَهُ قرابَة لمَا فَعَلَ بكم هذا ؛ أَمَرَ بالحِبالِ تُقطَعُ, رَمَقَ الإمامَ , حدَّثَهُ : إيهٍ يا عليُّ بنُ الحسينِ, أَبوكَ الذي قَطَعَ رَحِمي و جَهِلَ حَقِّي و نازعني سُلطانِي فَصَنَعَ اللهُ به ما رَأَيت .

ـ تَلَا عليهِ زينُ العابدين آيةً بهدوءٍ واطمئنانٍ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} .

اهتزَّتْ نفسُ يزيد , اشتاطَ غضَباً, خَمَدَتْ نَشوةُ أَفراحِهِ , أَردَفَ بآيةٍ على مسامع الإمامِ : {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}.

ـ رَدَّ عليه الإمامُ :هذا في حَقِّ مَنْ ظَلَمَ لا في حَقِّ مَنْ ظُلِمَ ؛ زَوَى وجهَهُ عنه احتقارًا له , واستهانةً بشأنِهِ , صَمَتَ

****

*(الحوراءُ زينب والطَّاغية)

فرحَ يزيدُ , تَرنَّمَ بأَبياتِ ابن الزَّبعرى بصوتٍ يسمَعُهُ الجميعُ :

لَيْتَ أشْياخي ببَدْر شَهدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأسَلْ

لأهَلُّوا واسْتَهَلُّوا فَرحاً ... ثُمَّ قَالُوا يا يزيدُ لَا تشَلْ

قَدْ قَتَلْنَا القَرْنَ من سَاداتهم ... وعَدَلْنَا قَتْلَ بَدْر فَاعْتَدَلْ

لَعبَتْ هَاشمٌ بالمُلْك فَلا ... خَبر جاء ولا وحي نَزلْ

لَسْتُ من خندفَ إنْ لَمْ أنْتَقم ... من بَني أحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلْ

سَمِعَتْ العقيلةُ تشفِّي الطَّاغيةُ بقتلِ عِترةِ رسولِ اللهِ , أَلقَتْ خُطبَتَها قائلةً : الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى جَدِّي سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، صَدَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ يَقُولُ:

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى- أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ أَظَنَنْتَ يَا يَزِيدُ حِينَ أَخَذْتَ عَلَيْنَا أَقْطَارَ الْأَرْضِ، وَضَيَّقْتَ عَلَيْنَا آفَاقَ السَّمَاءِ، فَأَصْبَحْنَا لَكَ فِي إِسَارٍ، نُسَاقُ إِلَيْكَ سَوْقاً فِي قِطَارٍ، وَأَنْتَ عَلَيْنَا ذُو اقْتِدَارٍ، أَنَّ بِنَا مِنَ اللهِ هَوَاناً وَعَلَيْكَ مِنْهُ كَرَامَةً وَامْتِناناً؟؟ وَأَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ خَطَرِكَ وَجَلَالَةِ قَدْرِكَ؟؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ وَنَظَرْتَ فِي عِطْفٍ، تَضْرِبُ أَصْدَرَيْكَ فَرِحاً وَتَنْفُضُ مِدْرَوَيْكَ

مَرحاً حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا لَكَ مُسْتَوْسِقَةً وَالْأُمُورَ لَدَيْكَ مُتَّسِقَةً وَحِينَ صَفِيَ لَكَ مُلْكُنَا وَخَلَصَ لَكَ سُلْطَانُنَا.

فَمَهْلًا مَهْلًا لَا تَطِشْ جَهْلًا! أَ نَسِيتَ قَوْلَ اللهِ: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ.

أَمِنَ الْعَدْلِ يَا ابْنَ الطُّلَقَاءِ تَخْدِيرُكَ حَرَائِرَكَ وَسَوْقُكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللهِ سَبَايَا؟؟ قَدْ هَتَكْتَ سُتُورَهُنَّ وَأَبْدَيْتَ وُجُوهَهُنَّ يَحْدُو بِهِنَّ الْأَعْدَاءُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَيَسْتَشْرِفُهُنَّ أَهْلُ الْمَنَاقِلِ وَيَبْرُزْنَ لِأَهْلِ الْمَنَاهِلِ وَيَتَصَفَّحُ وُجُوهَهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ وَالْغَائِبُ وَالشَّهِيدُ وَالشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالدَّنِيُّ وَالرَّفِيعُ، لَيْسَ مَعَهُنَّ مِنْ رِجَالِهِنَّ وَلِيٌّ وَلَا مِنْ حُمَاتِهِنَّ حَمِيمٌ، عُتُوّاً مِنْكَ عَلَى اللهِ وَجُحُوداً لِرَسُولِ اللهِ وَدَفْعاً لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلَا غَرْوَ مِنْكَ وَلَا عَجَبَ مِنْ فِعْلِكَ.

وَ أَنَّى يُرْتَجَى مُرَاقَبَةُ مَنْ لَفَظَ فُوهُ أَكْبَادَ الشُّهَدَاءِ وَنَبَتَ لَحْمُهُ بِدِمَاءِ السُّعَدَاءِ وَنَصَبَ الْحَرْبَ لِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَجَمَعَ الْأَحْزَابَ وَشَهَرَ الْحِرَابَ وَهَزَّ السُّيُوفَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ أَشَدُّ الْعَرَبِ لِلَّهِ جُحُوداً وَأَنْكَرُهُمْ لَهُ رَسُولًا وَأَظْهَرُهُمْ لَهُ عُدْوَاناً وَأَعْتَاهُمْ عَلَى الرَّبِّ كُفْراً وَطُغْيَاناً.

أَلَا إِنَّهَا نَتِيجَةُ خِلَالِ الْكُفْرِ، وَضَبٌّ يُجَرْجِرُ فِي الصَّدْرِ لِقَتْلَى يَوْمِ بَدْرٍ! فَلَا يَسْتَبْطِئُ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ مَنْ كَانَ نَظَرُهُ إِلَيْنَا شَنَفاً

وَشَنْآناً وَأَحناً وَضَغَناً يُظْهِرُ كُفْرَهُ بِرَسُولِهِ وَيُفْصِحُ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ فَرِحاً بِقَتْلِ وُلْدِهِ وَسَبْيِ ذُرِّيَّتِهِ غَيْرَ مُتَحَوِّبٍ وَلَا مُسْتَعْظِمٍ:

لَأَهَلُّوا واستهلُّوا فَرحاً و لَقَالُوا يا يزيدُ لَا تُشَلَّ

مُنْتَحِياً عَلَى ثَنَايَا أَبِي عَبْدِ اللهِ وَكَانَ مُقَبَّلَ رَسُولِ اللهِ (ص) يَنْكُتُهَا بِمِخْصَرَتِهِ، قَدِ الْتَمَعَ السُّرُورُ بِوَجْهِهِ! لَعَمْرِي لَقَدْ نَكَأْتَ الْقُرْحَةَ وَاسْتَأْصَلْتَ الشَّأْفَةَ بِإِرَاقَتِكَ دَمَ سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَابْنِ يَعْسُوبِ الْعَرَبِ وَشَمْسِ آلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهَتَفْتَ بِأَشْيَاخِكَ وَتَقَرَّبْتَ بِدَمِهِ إِلَى الْكَفَرَةِ مِنْ أَسْلَافِكَ ثُمَّ صَرَخْتَ بِنِدَائِكَ وَلَعَمْرِي قَدْ نَادَيْتَهُمْ لَوْ شَهِدُوكَ وَوَشِيكاً تَشْهَدُهُمْ وَيَشْهَدُوكَ، وَلَتَوَدُّ يَمِينُكَ كَمَا زَعَمْتَ شُلَّتْ بِكَ عَنْ مِرْفَقِهَا، وَأَحْبَبْتَ أُمَّكَ لَمْ تَحْمِلْكَ وَأَبَاكَ لَمْ يَلِدْكَ، حِينَ تَصِيرُ إِلَى سَخَطِ اللهِ ، وَمُخَاصِمُكَ وَمُخَاصِمُ أَبِيكَ رَسُولُ اللهِ.

اللَّهُمَّ خُذْ بِحَقِّنَا وَانْتَقِمْ مِنْ ظَالِمِنَا، وَأَحْلِلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنَا، وَنَقَصَ ذِمَامَنَا وَقَتَلَ حُمَاتَنَا وَهَتَكَ عَنَّا سُدُولَنَا، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَمَا فَرَيْتَ إِلَّا جِلْدَكَ، وَمَا جَزَزْتَ إِلَّا لَحْمَكَ، وَسَتَرِدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ بِمَا تَحَمَّلْتَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَانْتَهَكْتَ مِنْ حُرْمَتِهِ وَسَفَكْتَ مِنْ دِمَاءِ عِتْرَتِهِ وَلُحْمَتِهِ، حَيْثُ يَجْمَعُ بِهِ شَمْلَهُمْ وَيَلُمُّ بِهِ شَعَثَهُمْ وَيَنْتَقِمُ مِنْ ظَالِمِهِمْ وَيَأْخُذُ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ.

وَ لَا يَسْتَفِزَّنَّكَ الْفَرَحُ بِقَتْلِهِ، وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ.

وَ حَسْبُكَ بِاللهِ وَلِيّاً وَحَاكِماً وَبِرَسُولِ اللهِ خَصِيماً وَبِجَبْرَئِيلَ ظَهِيراً. وَسَيَعْلَمُ مَنْ بَوَّأَكَ وَمَكَّنَكَ مِنْ رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا وَأَنَّكُمْ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

وَ مَا اسْتِصْغَارِي قَدْرَكَ وَلَا اسْتِعْظَامِي تَقْرِيعَكَ تَوَهُّماً لِانْتِجَاعِ الْخِطَابِ فِيكَ بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَ عُيُونَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ عَبْرَى وَصُدُورَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِهِ حَرَّى فَتِلْكَ قُلُوبٌ قَاسِيَةٌ وَنُفُوسٌ طَاغِيَةٌ وَأَجْسَامٌ مَحْشُوَّةٌ بِسَخَطِ اللهِ وَلَعْنَةِ الرَّسُولِ قَدْ عَشَّشَ فِيهِ الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ وَمَنْ هُنَاكَ مِثْلُكَ مَا دَرَجَ وَنَهَضَ. فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِقَتْلِ الْأَتْقِيَاءِ وَأَسْبَاطِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَلِيلِ الْأَوْصِيَاءِ بِأَيْدِي الطُّلَقَاءِ الْخَبِيثَةِ وَنَسْلِ الْعَهَرَةِالْفَجَرَةِ تَنْطِفُ أَكُفُّهُمْ مِنْ دِمَائِنَا وَتَتَحَلَّبُ أَفْوَاهُهُمْ مِنْ لُحُومِنَا وَلِلْجُثَثِ الزَّاكِيَةِ عَلَى الْجُبُوبِ الضَّاحِيَةِ تَنْتَابُهَا الْعَوَاسِلُ وَتُعَفِّرُهَا الْفَرَاعِلُ فَلَئِنِ اتَّخَذْتَنَا مَغْنَماً لَتَتَّخِذُنَا وَشِيكاً مَغْرَماً، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ وَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى وَالْمُعَوَّلُ وَإِلَيْهِ الْمَلْجَأُ وَالْمُؤَمَّلُ.

ثُمَّ كِدْ كَيْدَكَ وَاجْهَدْ جُهْدَكَ! فَوَ الَّذِي شَرَّفَنَا بِالْوَحْيِ وَالْكِتَابِ وَالنُّبُوَّةِ وَالِانْتِجَابِ لَا تُدْرِكُ أَمَدَنَا وَلَا تَبْلُغُ غَايَتَنَا. وَلَا تَمْحُو ذِكْرَنَا

وَلَا تَرْحَضُ عَنْكَ عَارُنَا. وَهَلْ رَأْيُكَ إِلَّا فَنَدٌ وَأَيَّامُكَ إِلَّا عَدَدٌ وَجَمْعُكَ إِلَّا بَدَدٌ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي أَلَا لُعِنَ الظَّالِمُ الْعَادِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَكَمَ لِأَوْلِيَائِهِ بِالسَّعَادَةِ وَخَتَمَ لِأَوْصِيَائِهِ بِبُلُوغِ الْإِرَادَةِ نَقَلَهُمْ إِلَى الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالْمَغْفِرَةِ وَلَمْ يَشْقَ بِهِمْ غَيْرُكَ وَلَا ابْتَلَى بِهِمْ سِوَاكَ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُكْمِلَ لَهُمُ الْأَجْرَ وَيُجْزِلَ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالذُّخْرَ وَنَسْأَلُهُ حُسْنَ الْخِلَافَةِ وَجَمِيلَ الْإِنَابَةِ إِنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ, وحَسبُنَا اللهُ ونِعمَ الوَكِيل.

أنهَارَ كبرياءُ يَزيد , أَطبَقَتْ شَفتَاهُ , خَرُسَ لسَانُهُ , فَضَحتهُ بخِطَابهَا , اضطَرَبَ !

أَخَذَ يلتمِسُ المَعَاذيرَ , ويَسأَلُ أَهلَ الشَّام : أَتدرونَ مِنْ أَينَ أَتى ابنُ فاطمَةَ , وما الحاملُ لهُ على ما فَعَلَ, وما أَوقعَهُ فيما وقَعَ؟

ـ كَلَّا .

تخبَّطَ في مَنطِقِهِ , راحَ يُحدِّثهُم عن بِنائِه لِمَجدِهِ الكاذِبِ بتغلُّبِهِ وقَهرِ سِبطِ النَّبيِّ .

****

*(الحوراء مع شامي ويزيد)

نظَرَ أَهلُ الشَّام إلى بناتِ البَيتِ الهَاشِميِّ , ذَكروا عِزَّتهنَّ وشرفِ بَيتِهِنَّ , غَضُّوا أَبصارَهم على استحياءٍ , إلَّا رجلاً ضَخمَ الجثَّةِ أَحمرَ

الوَجهِ , ظلَّ يُحدِّقُ بالسَّيدةِ فاطمةَ بنتِ الحسينِ , يَلتَهِمُها بنَظَراتِهِ الدَّنيئةِ , ظَنَّهُ بأَنَّها منَ الخَوارجِ , نهضَ قائلاً ليزيد :

هبْ لِي هذهِ لتكونَ خادمةً عندي ؟

ذُعِرَتْ العَلَّويَّةُ الطَّاهرةُ ,ارتَجَفَتْ , أَخَذَتْ مُستجيرَةً بثيابِ عَمَّتها الحَوراء , صَرَخَتْ العقيلةُ بوجهِ الرَّجلِ: كَذَبتَ ولَؤمْتَ، ما ذلكَ لكَ، ولا لأَميركَ.

استثارَهُ قولُها غَضَباً , تساءلَ مُنكراً بصوتٍ مُرتَفِعٍ : كَذبتِ، إنَّ ذلكَ لي، ولو شِئتُ لَفَعلتُ.

نَهَرتهُ , أَطلقتْ عنانَ لسَانِهَا بسِهامِ مَنطقِها الفيَّاضِ , قائلةً : كَلاّ واللهِ ما جعلَ لكَ ذلكَ، إلاّ أَن تخرجَ منْ مِلَّتنا، وتدينُ بغيرِ دِينِنا.

أَهانَتهُ أَمامَ حُشُودهِ من الشَّام, فَقَدَ لُبَّهُ , صَرَخَ : إيَّايَ تَستقبلينَ بهذا؟ إنَّما خَرَجَ منَ الدِّينِ أَبوكِ وأَخوكِ.

هَزَّتْ رأَسَها استخفافاً, غيرَ مُبَاليةً بسلطانِهِ وقُدرَتِهِ على البَطشِ , ,رَدَّتْ عليهِ بثقةٍ : بِدِينِ اللهِ ودينِ أَبي وجَدِّي اهتَديتَ أَنتَ وأَبوكَ إنْ كنتَ مُسلماً.

هل أَزاحَتْ العَقيلةُ سِتَارَ أُكذوبَةِ يَزيد عن أَخيها بأَنَّهُ منَ الخَوارج؟

صَرَخَ الطَّاغيةُ : كَذبتِ يا عَدوّةَ اللهِ.

أَخرَسَتْ لسَانَهُ , نَطَقَتْ : أَنتَ أَميرٌ مُسَلَّطٌ، تَشتُمُ ظلماً، وتَقهَرُ بسلطَانِكَ.

أَطرَقَ برأسِهِ الأَرضِ , تَلعثَمَ , طَرَقَ مسامِعَهُ الشَّاميُّ مرَّةً أُخرى : ياأَميرُ هَبْ لي هذهِ الجَاريةَ ؟

صاحَ بِهِ أَميرُهُ : أُغربْ , وَهَبَ اللهُ لكَ حَتفاً قاضياً.

****

*(طفلة يتيمة في خربة الشام)

ملائكيةٌ منْ صُلبِ البَدرِ المُتأَلِّقِ في السَّماءِ المَظلومِ بالأَرض, بَراءتها وسكونُ ملامِحِها كبراءةِ جَدَّتِها الطَّاهرةِ البتولِ, نورُها كالقَمَرِ المُنيرِ .

عادَ شَريطُ ذكرياتِهَا ....!

سَمِعَتْ أَباها سِبطَ حَبيبِ اللهِ يُحدِّثُ ابنَ عَمِّهِ: قد شاءَ اللهُ أَنْ يَرَاهُنَّ سَبَايا!

سَارتْ بقَدمِيها الصَّغيرتينِ, تُهَمْهِمُ: هلْ ستأخُذُني يا أَبتي مَعَك؟

دَخَلَ الأَبُ, فَهَروَلَتْ تُعانقُهُ وتقبِّلُهُ, هَمَسَتْ: أَبَتَاهُ أَتأخُذُني في الرِّحلةِ؟

تَبَسَّمَ في وجهِها الزَّاهرِ , سأَلها: أَلَاْ تَخافينَ الظَّمأ ومَشقَّةَ الطَّريق؟

ـ رَدَّتْ: لله , وبينَ يديكَ روحي فِداكَ.

هلَ شَعَرَتْ بإراقةِ دَمِ أَبيها الطَّاهرِ ؟ بما هو آتٍ من نَكَبَاتِ هذهِ الرِّحلة؟

خرجَ سبطُ سيِّدِ الخَلقِ من المدينةِ يحملُ حَرَائرَ بيتِ الرسالةِ ويدُهُ تلاصقُ يدَ الطِّفلةِ الصَّغيرةِ التي تُشبِهُ يَدَ الدُّميةِ, لاتفارقُهُ حتى تَتَمنَّى يكون ليلُها صُبحاً, لترى نورَ أَبيها, لا يَهمُّها عناءُ السَّفرِ ووحشَةُ الصَّحراءِ وسيوفُ الشَّياطينِ, كلُّ هذا في عينِها كَمَدٌ .

تُسَامرُ أَهدابُها المفتوحةُ حَدَقَاتِ جَسَدٍ كجَسَدِ رسولِ اللهِ, بعدَ أَيام سيكونُ مُرمَّلا بالدماءِ على عَرَصَاتِ كربلاء, تفتحُ عينيها الواسعتينِ على هيبةٍ وسكينةٍ لا توصَفُ.

نزلوا الطَّفَّ, أَلصَقَ طفلتَهُ بحجرهِ, احتَضَنَها هامساً: سأَلحَقُ بالمصطفى والمرتضى قريبا!

ـ سالتْ دموعُهَا على خَدَّيها كزخاتِ المَطَرِ : ياأَبتاهُ لا تتركني, لا حياةَ دونَكَ .

تبسَّمَ هامساً: سَلي اللهِ اللقاءَ؟

في الليلةِ الظلماءِ وبصوتٍ تَقشَعرُّ له الأَبدانُ ودَّعَ أَهلَهُ منادياً: يا أُختاه! يا أُمَّ كلثوم، وأَنتِ يا زينبُ، وأَنتِ ياسكينةُ وأَنتِ يا رقيةُ، وأَنتِ يا فاطمةُ، وأَنتِ يا رَبابُ، انْظُرنَ إذا أَنا قُتلتُ فلا تشققنَ عليَّ جيباً، ولا تَخمُشْنَ عليَّ وجهاً ولا تَقُلنَ عليَّ هجراً.

تَتَجلَّدُ ,وسيلُ الدَّمعِ يتساقطُ على وجنتيها: كلا, لا أَظنُّ الظنونَ, أَنا كما أَرادني سيِّدُ شبابِ أَهل الجَنَّةِ.

ضمَّها إلى صدرهِ, مَسَحَ دموعَها, هَمَسَ: صَلِّي, اسأَلي اللهَ ما تُحبينَ.

انتابَتها غيبوبةٌ, انقطعَ النَّحرُ الخَضيبُ فوقَ الرِّمالِ.

تكفكفُ دموعَها, كلَّما أَفاقَتْ سأَلتْ عمَّتها العقيلةَ: عَمَّتي أَين أَبي لِمَ لا يَأتي أَبي؟

ـ أَبوكِ سافرَ وغداً تلتقينَهُ عندما يعود.

غَدَتْ مظلومةً محزونةً , استيقظتْ مرَّةً أخرى , رأَتْ مُخدَّراتِ الرسالةِ مكبَّلاتٍ بالسَّلاسِلِ والقيودِ , يغطي حجابَهُنَّ الترابُ, سأَلتها عمَّتها: أَتشرَبينَ الماءَ؟

رَدَّت: عمَّتي لا أُريدُ ماءً, لا أَشربُ حتَّى يأتي أَبي؟

ذَبلتْ الوردةُ الجميلةُ, أَصابَها الإعياءُ,

نَهضَتْ تَتَرَنَّحُ يميناً وشمالاً , وتَجُرُّ برجلَيها نحو سَجَادةِ صلاةٍ, كعادتِها فَرَشَتها لأَبيها تنتظرُ قدومَهُ, غلبَها النومُ فرأَتْ في منامها: كأَنَّها تُقبلُ مهرولةً نحوَ أَبيها, ترفعُ يديها لتعانِقهُ, استيقظتْ أَجهشَتْ بالبكاءِ وضَجَّتْ بالنَّحيبِ, صَرَخَتْ: قرَّةَ عيني حُسين , أَبي حسين , حَبيبي حسين.

تكررَ القولُ بصراخٍ يُقطِّعُ نياطَ القلب مرةً تلو الأُخرى, تحاولُ النِّساءُ التَّخفيفَ من رَوعِها دون جدوى, فأَبكَتْ مَنْ حولَها, نادى الجميع معها: وا حُسيناهُ .. وا إماماهُ ...

سَمِعَ يزيدُ الصُّراخَ , فاشتاطَ غضباً , ليطلقَ عنان لسانِهِ بالرِّجسِ والحِقدِ , فسأَلَ زبانيته؟

ما هذا البكاءُ والنَّحيبُ؟

ردوا عليه: إنَّها طفلةُ الحسينِ, رأَتْ أَباها بالمنامِ, تريدُ أَنْ تَراهُ.

نظرَ إلى قائدِ عَسكرِهِ فأَمَرهُ وحاشِيَتَهُ: خُذُوها لرأسِ أَبيها تَتَسَلَّى به!

أَتوا إليها برأسِ والدِها بإناءٍ مُغَطًّى بمنديلٍ ووضَعوهُ بينَ يديها.

صَمَتَتْ, سأَلتهم: ما هذا أَنا لم أَطلبْ طَعاماً؟ أُريدُ أَبي؟

ـ قَهقَهَ: هذا أَبوكِ.

كَشَفَت الغِطاءَ, صَرَخَتْ صرخةً تدكُّ الجبالَ وتفتتُ الصَّخور : واحسيناهُ وا ابتاهُ, ضَمَّتهُ إلى صدرها, كَلَّمتَهُ: يا أَبتاهُ مَن الذي خضّبَكَ بدمائك؟ يا أَبتاهُ مَن الذي قطعَ وريدك؟ يا أَبتاهُ مَن الذي أَيتَمَنِي على صِغَرِ سِنِّي؟ يا أَبتاهُ مَن بَقِي بعدَكَ نَرجوه؟ يا أَبتاهُ مَن لليتيمةِ حتّى تكبر؟

لَثِمَتهُ, قَبَّلتْهُ بفيهِ, وغَشِي عليها من البكاءِ, شَهقَتْ, اقتربتْ منها العقيلةُ, حَرَّكتها, فارقتِ الحَياةَ .

* أم البنين في المدينة

ترصد العابرين , تسألهم بحزن , بنبرة ملهوفة , خائفة , من لا يعرفها يتهمها يالجنون !

من يبرد غليل قلب ثكلى بفراق ابنها , أريد خبرا عنه من رأى الحسين ؟

تسال وترجع حزينة !

كل ليلة تجلس مع من تشاطرها الأحزان , أم سلمة , ترى في دموعهاإجابة لاتفهمها !

تلتفت إلى أم الفضل , تشعر بشجنها , ضيقها , حزنها العميق , لكن زوجة العباس تخفي أنينها!

منذ ليلة العاشر من محرم اضطربت لبابة, تذكرت وحشة العباس .

هم أم البنين بوحشة الحسين .

يهدآن اللوعة والوحشة باحتضان الصغار , تجلس فاطمة الكلابية بزاوية الدار , بالعتمة الدامسة , ترتعد أثناء قيامها لصلاة النافلة , أقبلت عليها أم الفضل نطقت بصوت لا يخلو من بذور نحيب: أماه أترتعدين؟ أجلب لك غطاء !

ـ لا يابنيتي , الليلة ليلة جمعة , تذكرت صوت العباس وهو يقرأ دعاء الخضر .

نزلت دموع لبابة بصمت , احتضنتها أم البنين , ضمتها لحجرها ,مسحت دموعها بأطراف أصابعها ,خففت عنها , استعارت دعاء زوجها الذي علمه للكميل بن زياد , فرنت مسامع أم الفضل : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء ..وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء..

عاد الارتعاد , انحدرت دموعها , بصوت شجي وأنين , نطقت : فإليك يارب نصب وجهي , وإليك يارب مددت يدي ..

أردفت تكملت الدعاء , ختمت : ياسريع الرضا , هدأت نجواها , استكانت ,دعت ان يبرد غليلها بخبر عن الحسين .

غشيتها غفوة ,لعلها رأت الحسين والعباس في عليين , حظيت برؤية دموع زينب الجارية على وجنتيها و الهم في عينيها !

فاقت , وجدت المكان حولها خاليا , اعتصر قلبها صباحا , ترى نفسها وحيده , تشكر الله على أمره.

كعادتها صباح كل جمعة , تزور أرحامها , زارت أم سلمه , توقفت بعدها , تأملت , أين الحسين , أين الأحبة ؟

عند الزوال قامت للصلاة , ناجت ربها طويلا أن يخفف عنها وطأة الأشجان , سجدت , زاد حنينها للحسين.

مضى أربعون يوما على الانتظار لتطمئن ولو بخبر, جاء صوت كصيحة طائر يرفرف بجناحيه تتساقط دموعه غيثأ لتروي الأرض من الضمأى والكلآ؟

ارتفع ذلك الصوت , نداء أثيل , ببكاء ونحيب :

ياأهل يثرب لا مقام لكم بها ...قتل الحسين فأدمعي مدرارا

الجسم منه بكربلاء مضرج ...والرأس منه على القناة يدار

سمعت أم البنين الصوت بروحها , لا تعلم مصدره, مشت على الأقدام , طائرة نحوه .

كلما تقربت من مرقد النبي , يزداد العويل من كل حدب وصوت , كأن الرسول وبضعته وعلي والحسن يبكون معهم !

رأت أم البنين صاحب الصوت , إنه بشر بن حذلم , تسأله الناس !

سألته : أيها الناعي , هل لك علم بولدي الحسين؟!

تعجب , قبل قليل نعى الحسين , ما هذا السؤال!

سأل عنها ؟

ـ إجابة الناس : أنها أم البنين.

التفت إليها , مولاتي , عظم الله أجرك بولدك عبد الله .

نظرت إليه , ردت : فداء للحسين , سؤالي عن سيدي الحسين ؟

أحساس بشر بخبر الحسين سيصعقها , راح يعزيها بولدها عثمان .

هتفت:فداء للحسين , سؤالي عن مولاي الحسين ؟

ـ عظم الله أجرك بولدك جعفر .

أزداد حزنها عمقا , سكونها صمتا , أسمعته مردده:

قلت لك فداء للحسين ,إنما سؤالي عن الحسين؟

كأن بشر يتدرج معها بالخبر شيئا فشيئا , عظم الله أجرك بولدك العباس .

طفحت روحها , تصدع قلبها , كلمته : ياهذا , قطعت نياط قلبي , أولادي كلهم فداء للحسين , أسألك عن ولدي الحسين ؟

ـ سيدتي ومولاتي , عظم الله لك الآجر بسيدي الحسين.

صرخت : وولاده واحسيناه , وامهجة قلباه !

أغمي عليها , صببن النسوة الماء على وجهها , أفاقت , حركت شفتيها : أين ابنتي زينب؟ أين مولاتي وأبنت مولاتي ؟أين حبيبتي زينب؟

سمعت بشر ينادي : دخل السجاد والسبايا المدينة .

سارعت أم البنين إلى الفسطاط , وجدت خادمة عند بابه , تمنع النساء من الدخول , تتكلم الخادمة : أوصتني سيدتي ومولاتي زينب عدم السماح بالدخول إلا شريكتها في المصاب ؟

سمعتها : رن مسامعها , أخبري مولاتي زينب أنني أم البنين !

جاء الصوت حزينا : أه أماه أم البنين , شريكتنا في المصاب .

هرولت صارخه : واولادها ..واحسيناه !
تعانقا وبكيا طويلا ,ارتمت العقيلة بأحضانها ,رأت شحوب وجهها , أثار ضرب السياط , انهارت قبلتها , حدثتها ,كأنها قائلة : ليت أثار السياط أصابتني دونك!

سالتها: بنيتي , هل وفى أولادي بعهدهم ؟ هل أطاع ولدي العباس أمام زمانه ؟ أأستشهد قبل الحسين أو بعده؟

أجهشت زينب بالبكاء , ردت بدموعها قبل لسانه , نطقت : أيه ياأم البنين! أعن العباس تسألين ؟

وأردفت : ما واسى أخ أخاه كما واسى العباس الحسين!
مقطوع اليدين , سهم أصاب العينين , ساقانا مرتين , فأرخى الحسين بالبكاء عينيه .
هدىء فؤاد أم البنين وستكان , مذ تلك اللحظة نصبنا العزاء الذي لاينتهي إلى الآبد ..

الفهرست

المقدمة	9
الفصل الأول (حجور خبيثة)	11
الفصل الثاني (حجور طيبة)	23
الفصل الثالث (صراع)	67
الفصل الرابع (رحلة من المدينة إلى الكوفة)	99
الفصل الخامس (المأساة الخالدة)	123
الفصل السادس(سبي آل الحسين)	163
الفصل السابع(السبايا إلى دمشق ,فالمدينة)	177